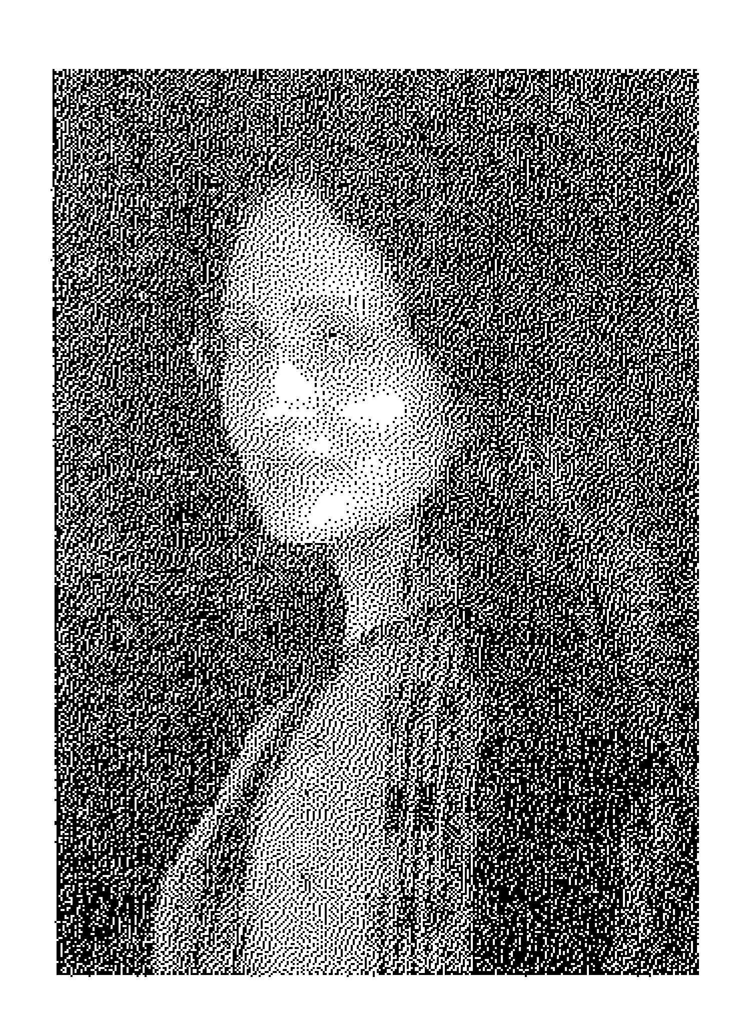
آناندا ديفي

حواء تخرج من أنقاضها

ترجمة
سهيل أبو فخر



دار علاء الدين



Ananda Devi

ولدت آناندا ديفي في موريشيوس عام 1957.

فازت بعمر 15 سنة بجائزة للقصة القصيرة نظمتها إذاعة فرنسا الوطنية، وكانت هذه الخطوة الأولى في مسيرتها الأدبية الطويلة التي شملت ثلاثين سنة وتسع روايات.

متخصصة في الأثنولوجيا والأنتروبولوجيا الاجتماعية، بالإضافة إلى الترجمة.

بدأت تنشر أعمالها في عام 2001.

حازت على عدة جوائز أدبية، منها: جائزة الإذاعة الفرنسية العالمية عن روايتها حواء تخرج من أنقاضها عام 2006. وترجمت أعمالها إلى عدة لغات: الإنكليزية، والفرنسية، والإيطالية، وغيرها.

أعمالها:

- Rue la poudrière. 1989
- Le voile de Draupadi. 1993
- L'arbre fouet. 1997
- Moi, l'interdite. 2000
- Pagli. 2001
- Soupir. 2002
- La vie de Joséphin le fou. 2003
- Ève de ses décombres. 2006
- Indian Tango. 2007
- Le sari vert. 2009

حواء

تخرج من انقاضها

Ananda Devi

Ève

De Ses Décombres

آناندا ديفي

حواء تخرج من أنقاضها

ترجمة

سهيل أبو فخر



منشورات دار علاء الدين

- حواء تخرج من أنقاضها.
- تأليف: آناندا ديفي.
- ترجمة: سهيل أبو فخر.
- الطبعة الأولى 2010.
- عدد النسخ 1000 نسخة.
- تمت الطباعة في دار علاء الدين.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية / دمشق، ص. ب: 30598 هاتف: 5617071

فاكس: 5613241، E-mail: ala-addin@mail.sy

ISBN: 978-9933-18-053-9

حواء:

يصعب عليّ المشي. ها أنا ذا أعرج وأنحني إلى الأمام على الإسفلت الذي ينطلق منه الدخان.

عند كل خطوة يولد غولٌ كاملٌ تماماً.

ينتفخ ليل المدينة حولي مثل كرة من المطاط. يلفحُ الهواءُ المالحُ آلامي وجلدي، لكني أتابع طريقي.

لن أتبع بعد الآن سوى منطقي الخاص. لم يعد هنالك أيّ أهمية لما يعتمل بداخلي، ولا لشذرات الحياة هذه التي تضمحلُّ وتحولني إلى مخلوقٍ مستنزَفٍ يسير خلف الليل. والصمت الذي يسبر أعماقي يكتم أنفاسي.

أدخل في خطوتي، فهي من الآن فصاعداً ملاذي الوحيد. أما وقع أقدامي على الطريق فهو وقع أقدام الفاشلين. علّقتُ حقيبتي المدرسية على كتفي الأيمن. لم تكن تحوي سوى الكتب في ذلك المساء. غير أن ورماً حميداً فيها، تحت إبطي تماماً: إنه حروق البدايات الخاطئة والنهايات الخائبة. وعما قريب، لن يظل هذا مجرد إيقاع يختبئ في عروقي، بل سأحمل علامتي المميزة فوق جبيني وبين حاجبيّ. فمن أجل هذه اللحظة وُلِدْتُ.

أمرِّر يدي على عنقي. تدهشني خشونة بشرته. وانعدام الشعر يجعلني عاريةً أكثر من أي وقت مضى. ثم أتذكر أن أمي قد جزّته.

عندما نظرتُ إلى نفسي في المرآة، رأيت رأسي كرأس اللبوة. كنت صلعاء مثل جوعي.

سأمشي، حتى لو كنت أريد أن أركض نحو نفسي. يهتز الليل؛ ترتجف المدينة. لقد خرجتُ، ولم يعد بإمكان أي شيء أن يوقفني.

الجزء الأول

صاد:

أنا "صادق". غير أن الناس ينادونني "صاد".

هنالك خيط رفيع بين الحزن والفظاعة.

"حواء" عِلّتي، لكنها تزعم أنها لا تعرف ذلك. عندما تصادفني تَعْبُرُ نظرتها إلى داخلي دون أن تتوقف. فأتلاشى.

أعيش في منطقة رمادية أو بالأحرى بنية ضاربة إلى الاصفرار، منطقة تستحق اسمها: "ترومارون". "ترومارون" ضربٌ من حفرة، آخر مستنقع تنسكب فيه مياه الصرف الصحيّ لبلد بأكمله. هنا يتم إيواء اللاجئين من الأعاصير، أولئك الذين لم يجدوا مكاناً يسكنون فيه بعد عاصفة استوائية، والذين، بعد سنتين أو خمس أو عشر أو عشرين سنة، تظل أصابع أقدامهم في الماء وعيونهم ممتقعة بالمطر.

أنا أعيش فيها مذ ولدت. لاجئٌ منذ الولادة. وعلى غرار جميع أولئك الذين كبروا في ظلال هذه المباني الصفراء لم أفهم شيئاً من زواياها المنحوسة. ولم أكن لأرى تحت أقدامنا تلك الخنادق التي تفصلنا عن العالم. كنت ألعب مع "حواء". ولم أكن أدعوها "الهيكل العظمي" لأنها كانت نحيلةً جداً فحسب، بل كي أخفي عاطفةً لم أعترف بها. ظللنا نلعب لعبة الحرب إلى أن دخلنا ميدان الحرب.

نحن بجوار جبل "سينيو". تتدلى مدينة "بور لوي" تحت أقدامنا لكنها لا تستقبلنا. بل تدير لنا ظهرها. يتوقف طنين حممها الصماء

على حدودنا. ويَحولُ الجبل دون رؤية أي شيء آخر. بين المدينة والصخر بيوتنا وبقايانا ومزابلنا. وتحت أقدامنا القطران وأكزيما المناظر الطبيعية. أصبح ملعب الأطفال مضمار حرب بأشواكه وكسرات قواريره الخزفية وأفاعيه المتربصة. هنا شد الشبان قبضاتهم لأول مرة، وبكت الفتيات لأول مرة. هنا واجه كل واحد منا يقينه.

ذات يوم نستيقظ لنرى المستقبل وقد تلاشى. السماء تغطي النوافذ. والليل يدخل في الأجساد ويرفض أن يخرج منها.

الليل وجنون الهرمونات. نحن الشبان كنا بحاجة ماسة إلى الجنس الآخر، فشرعنا نطارد الفتيات حتى المصنع المقفل الذي افترس أحلام أمهاتنا. ربما أن هذا هو أيضاً ما ينتظرهن. لم يبقَ من المصنع سوى هيكل معدني فارغ ومئات من آلات الخياطة التي أضفت على أكتافهن انحناء الهزيمة، وعلى أيديهن ثقوباً وحزوزاً بدلاً من الوشم. ظلت في المصنع بقايا من كل تلك النسوة اللواتي عملن هنا. أرى أنهن سعَيْنَ لأن يضفين مظهراً بشرياً على خرابهن. فإلى جانب كل آلة، تجد وردةً بلاستيكية أو صورةً عائلية مصفرَّة، أو بطاقةً بريدية قادمة من أوروبا، أو طاقية حمراء وقد عَلِقت فيها شعرات قليلة. أو تجد رمزاً دينياً - صليباً، آيةً قرآنية، تمثالاً بوذياً صغيراً، صورَ "كريشنا" - تتيح للناظر، ولو كان لا يحب الفوازير، أن يحزر لأي طائفة تنتمي صاحبة كل منها. عندما أقفل المصنع لم يستطعن أن يدخلن ولو لاستعادة أشيائهن. كان الأمر مباغتاً ومفاجئاً لهذه الدرجة، لكنني أدركت لاحقاً أنهن لم يرغبن في رؤية أي شيء. أتساءل بماذا أفادتهن كل تلك العبادة. ومنذ تلك اللحظة فقد تعرَّض كل شيء للصدأ ولألعابنا

الفاسدة، عندما كنا نختبئ وراء الستائر المغطاة بالزنجار. ها هي آثارنا تجتاح القاعات الزنخة وجحور الجرذان. وها هو ذا حبر البكارات المفضوضة هنا.

عندما يكون الحي هادئاً أحياناً تبدو لي ضجة البلاد من حولنا مختلفة عما هي عليه عندنا. موسيقا أخرى بأنغام أقلّ سوداوية. طَبْقُ أدراج. بريقُ التنمية. أما السياح فهم يحتقروننا دون دراية منهم. إنهم بريئون مثل نقودهم. نسلبهم بضع "روبيات" حتى ينتهي بهم الأمر لأن يرتابوا من كلامنا المعسول. أما البلد فترتدي فستانها السماوي الأزرق كي تغريهم بشكل أفضل. ويفوح عطر البحر من بين فخذيها. من هنا، لا نرى "ماكياج" الغرباء، ولا ترانا عيونهم المبهورة بشمسنا. هذه هي طبيعة الأمور.

تغيب الأمهات في ضباب الاستسلام. يجد الآباء مزايا السلطة في الكحول. بيد أنه لم يعد لديهم أيّ سلطة. فالسلطة نحن الأولاد. وقد رسمنا أماكن شللنا مثلما يفعل القادة العسكريون، وسيطرنا على أنحاء المنطقة جميعها. منذ أن فقد أباؤنا عملهم أصبحنا نحن السادة. أدركنا أنه ليس بمقدور أحد أن يوجه لنا الأوامر. ثم لم يعد أحد يستطيع أن ينظر في عيوننا دون أن يرتعد خوفاً. منذ تلك اللحظة أخذ كل واحد منا يعيش على هواه، متحرراً من القوانين ومن كل شيء. القوانين؟ نحن من يصدرها.

ولكنَّ شيئاً آخر تسلل منذ بعض الوقت إلى أحلامي. لقد ملأتُ جدران غرفتي بأسئلتي، وخضَّبتها بعصارة الكلمات. تعلمت أن أصمت. تعلمت أن أتكلم. تعلمت أن أظهر وأن أتوارى. أفترض أن

الجميع مثلي، نمشي مع التيار كالآخرين ولكن كل واحد منا في داخله ينكفئ على ذاته ويغذّي أسراره. تبعت خطاهم وتظاهرت بالانتماء إليهم من أجل المظاهر ومن أجل الاستمرار في الحياة. وهذا ما لم تفهمه "حواء".

عندما كانت "حواء" تمر بلباس "الجينز" المشدود وشعرها الطافح كزبد الليل، كان الآخرون يهزؤون ويصرصرون أسنانهم، أما أنا فكنت أرغب في أن أركع أمامها. لم تكن لتنظر إلينا. لم تكن لتخاف منا. ذلك أنها قد تسلّحت بعزلتها.

في الليل كانت هرموناتي تستعيد وجهها وترسمها برشقات الرغبة. وعندما لا يعود بإمكاني أن أتماسك، كنت أخرج مع الشلة فتنفجر أصوات دراجاتنا وتزعج الشيوخ النائمين. وفي الصباح كان الآخرون يغطون في ذهول المخدرات والغضب. أما أنا فكنت أغتسل وأحلق ذقني وأذهب إلى المدرسة. كانت هذه الحياة المزدوجة تضنيني، بيد أنني، مهما كلفني الأمر، لم أكن لأتغيب عن رؤية "حواء" عند موقف الباص في الصباح، حين كانت أشعة الشمس تدغدغ أذنيها.

ثم إنني أعترف بأني أحب الكلمات.

دسست ديوان شعر في حقيبتها.

وفيما بعد مرَّت بي وألقت نظرتها عليَّ فاضطرب كياني.

أهديتها جميع العبارات التي كنت أخطها على جدران غرفتي. أهديتها شموسي المرة.

حاضرتُنا مملكتنا. حاضرتنا في الحاضرة. مدينتا في المدينة. لكن مدينة "بور لوي" غيَّرتْ وجهها، فنَمَتْ لها أسنانٌ طويلة وعماراتٌ

أعلى من جبالها. أما منطقتنا فلم تتغير. إنها آخر المعاقل. هنا اتخذنا هويةً لأنفسنا لأننا كنا بلا هوية: هوية البدون. كانوا يدعوننا "الترومارييين" كما لو كان الأمر يتعلق بطائفة جديدة على هذه الجزيرة التي تعج بالطوائف من قبل. ربما نحن كذلك حقاً.

مغارتنا، ملعبنا، ميدان معاركنا، مقبرتنا. كل ذلك هَهُنا. لسنا بحاجة لأي شيء آخر. ذات يوم نصبح قوةً لا تُقهَر، فيرتعد العالم أمامنا. هذا هو طموحنا.

حواء:

قلم. ممحاة. مسطرة. علكة. كنت ألعب لعبة "الاستغماية" مع رغباتي. كنت طفلةً، بيد أنني لم أكن طفلةً تماماً. كان عمري اثنا عشر عاماً. كنت أغمض عيني وأمد يدي. كنت أفرك الهواء وأرتجف في الريح بملابسي الرقيقة. كنت أعتقد أن كل شيء بمتناول يدي. كنت أولّد النجوم في عيون الصبيان. وكنت أعتقد أن هذه هي سلطتي.

قلم. ممحاة. مسطرة. كنت أمد يدي لأنني لا أملك شيئاً في حقيبتي. كنت أذهب إلى المدرسة بأيدٍ فارغة. كنت أشعر بنوع من الفخر لأنني لا أملك شيئاً. يستطيع المرء أن يكون غنياً بفقره.

لأنني كنت صغيرة، لأنني كنت نحيلة، لأن ذراعيَّ وساقيَّ كانت صلبة مثل رسوم الأطفال، كان الأولاد الأكبر سناً مني بقليل يقومون بحمايتي. كانوا يعطونني ما أريد. كانوا يعتقدون أن هبَّةَ ريحٍ يمكنها أن تجعلني أترنَّحُ مثل زورق من الورق يشقُّ الماءُ بطنَه.

كنت زورقاً من الورق. كان الماء يبلل بطني وخاصرتيَّ وساقيَّ وذراعيّ. لكنني لم أكن لأرى ذلك. كنت أظن أنني قوية. كنت أعدّ فرصي. كنت أُقوّم كل لحظة. وكنت أعرف كيف أتسوَّل دون أن يبدو عليَّ ذلك.

قلم، ممحاة، مسطرة، أي شيء كان. كانوا يعطونه لي. كانت ترتسم على وجههم ملامح هذه الرأفة البسيطة التي كانت تغير كل شيء فتضفي عليهم مظهراً إنسانياً. ثم، ذات يوم، عندما تسولت كالعادة دون أن يبدو علي ذلك، طُلِبَ شيءٌ مني بالمقابل.

اعتقدت أن الأمر بسيط وسهل. ماذا يريد مقابل ذلك؟ كنت مشاغبةَ الصف وأكثر الأشياء تفاهةً. يعرف الجميع بأنني لا أملك أي شيء. في تلك المرة قيل لي بأنني أملك شيئاً ما. في حقيبتي كان الفراغ مثلما كان في بيتي الأصغر والأكثر عرياً من كل البيوت الأخرى، من خزائننا ومزابلنا. كانت هنالك عين أبي العمشاء بسبب الكحول. كان هنالك فم أمي وأجفانها المختومة بالشمع الأحمر. لم يكن لدي أي شيء. لم يكن لدي أي شيء أعطيه.

غير أنني كنت مخطئةً.

فما يريده كان قطعةً مني.

جرَّني نحو زاوية الباحة في الفرصة. أخذني وراء شجرة كبيرة، أسندني إلى جذع الشجرة ودس يده تحت قميصي. كنت أرتدي قميصاً أحمر كتب عليه اسم لاعب كرة قدم. لم أعد أذكر اسم من. توقفت يده على صدري، صعدت ونزلت ببطء، على الحلمة الدقيقة السوداء بالضبط. كانت من الصغر بحيث تبدو وكأنها غير موجودة. كنت أسمع صراخ الأولاد الآخرين الذين كانوا يلعبون. كانوا يبدون بعيدين عني. كانوا في عالم آخر. وضع الصبي يده الأخرى أيضاً. امتقع وجهه. سخنت وجنته. أخذ وقته مع أنه كان

خائفاً. أما أنا فلم أشعر بشيء. كنت خارج جسدي. ولم تكن لي أيّ علاقة به.

في ذلك اليوم لم يطلب مني أي شيء أكثر من ذلك. وأعطاني الممحاة أو القلم أو الدفتر، لم أعد أذكر بالضبط. ثم قرَّب فمه من أذني وهمس بها: "في المرة القادمة سنجرب شيئاً آخر".

هززت كتفي ونظرت بفضول إلى عينيه المغطاتين بغشاوة فضية مثل السكر المذاب. بدا غائباً. لم يعد موجوداً إلا من خلال يديه. لم يعد موجوداً إلا من خلالي.

ولأول مرة لم تعد حقيبتي فارغة. فقد أصبح عندي ما أقايض به: جسدي.

أستطيع أن أشتري. أقايض ما أحتاجه مقابل جسدي. مقابل نتف. شذرات. قطع مفككة. كنت أنظر بمجون إلى الأولاد الخارجين من المدرسة. كنت أسأل كل واحد منهم: "أتريد أن ترى شيئاً ما"؟ كانوا يضحكون ويقولون: اذهبي. ليس لديك ما يُرى. ولكن فيما بعد أصبحوا يطيلون النظر إليّ، وكانت عيناي تقول لهم شيئاً آخر. كنت أعرف كيف أفعل ذلك. وكنت أعرف كيف أجعل عيني تشعان ببريق شخصية أخرى ليس لها أيّ علاقة مع جسدي النحيل. كنت أنكر صغري وهشاشتي. كنت أناقض نفسي. كان ذلك يغير كل شيء. كانوا يتوقفون عن التنفس. يلامسون تضاريس وجهي وظلالها. يتركون عليه دغدغةً أو محلول الشهوة الذي كان يسيل على وجنتي اليمنى. وهم، الأولاد الكبار، كان لديهم أشياء أخرى يعطونها لي بالمقابل: كتب، آلات حاسبة،

أقراص. أما أنا فكل ما كنت أعطيهم إياه كان مجرد ظلال جسد.

كنت أفاوض بصورة مستمرة. كان جسدي مرفأً. وقد أبحرت فيه مراكب بأكملها. ومع الزمن أزهرت فيه حروق وصدوع. كل واحد ترك فيه علامته، كل واحد حدد فيه أرضه.

عمري سبعة عشر عاماً ولا أكترث. فأنا أشتري مستقبلي.

أنا شفافة. ينظر الأولاد إليّ كما لو كانوا يستطيعون الرؤية من خلال جلدي. وتتجنبني الفتيات خوفاً من العدوى. لقد ذاع صيتي.

أنا وحيدة. ذلك أنني أدركت ضرورة الوحدة منذ مدة طويلة. أمشي منتصبة القامة. لا يستطيع أحد أن ينفذ إلى داخلي. لا يستطيع أحد أن يقرأ وجهي المقفل إلا إذا اخترت أن أفتحه. أنا لا أشبه الآخرين. لا أنتمي إلى "ترومارون". لم يخطف الحيُّ الروحَ مني كما فعل بالآخرين، أولئك الرجال الآليين الذين يسكنون فيه. إن لدى الهيكل العظمي حياةً غامضة منقوشة بداخله. منحوتة بساطور الرفض. لا أهمية للماضي ولا للمستقبل، فهما غير موجودين. ولا الحاضر أيضاً.

ممحاة. قلم. مسطرة. البدايات بسيطة دوماً. ثم فتحت عينيَّ على عالم كئيب وحياة مجدورة. ونظرات الآخرين التي تحاكم وتدين. عمري سبعة عشر عاماً وقد أخذت زمام حياتي بيدي.

سأواجه الصخور. لن أكون مثل أمي ولن أكون مثل أبي. أنا شيء آخر حتى لو لم يكن حيّاً حقاً. أمشي وحيدةً ومنتصبةً. لا أخاف من أحد. هم يخافون مني. يخافون من المجهول الذي يكتشفونه تحت جلدي.

كلما لمسوني فقدوني. هؤلاء الذين يجرؤون على النظر تحت عينيَّ يصابون بالدوار. إنهم بسطاء جداً. يخيفهم المجهول. يريدون أطراً راسخةً. فتاةً يتزوجون منها أو فتاةً يستعملونها ويرمونها. يعرفون صنفين من الفتيات فقط. في حين أنني لم أكن لأنتمي لهذا الصنف أو ذاك. وهذا ما كان يتجاوز حدود إدراكاتهم ويغيظهم.

في الليل سوف أخرج إلى قارعة الطريق. لقد ضُرِبَتْ المواعيدُ مسبقاً. يأخذونني ويعيدونني. وأبقى باردة. إذا كان شيء ما قد تغير في داخلي، فهو ليس الجزء الحقيقي مني. أنا أحمي نفسي. أعرف كيف أحمي نفسي من الرجال. فاللص هو أنا إذن.

يأخذونني ويعيدونني. أحياناً يسيئون معاملتي. لا أهمية لذلك. فهذا مجرد جسد. وهو يلتئم. وهو مصنوع لذلك.

لقد صرفت النظر عن العوائق والأفخاخ. ورحت أرقص رقصة التحرر من القيود.

ظِلٌ أم جناح. لم تعودي كما كنت. أصبحت شيئاً آخر. في منطقة "ترومارون" هناك ظِلٌ يتبعك. يحتقرك. يقول لك إنك تمشين بالمقلوب. يغير شكلك، يقلب اتجاه مسارك، يكشف عن الوجه الآخر لصمتك. يسيل الماء من جميع جوانب الزورق الورقي دون أن تعلمي. تنظرين إلى نفسك وأنت تسيرين، لكنك لا ترينها. محايات، أوراق، أقلام، مساطر، كتب، قلب، كلى، أصابع الأقدام. ذات يوم تنظرين إلى نفسك في المرآة فلا تجدين أي شيء منك.

ترين وجهاً متكمشاً على أكاذيبه. تتساءلين أين مشيتُ؟ كنتِ تبحثين عن مفتاح فوجدت الباب مخلوعاً.

كليليو:

أنا "كليليو".

أنا مقاتل.

أقاتل ضد جميع الناس وضد لا أحد.

لا أستطيع أن أتخلص من غضبي.

من الثابت أنني سأقتل أحداً ما ذات يوم.

لا أعرف من.

ربما والديَّ، أو موظف، أو زميل من الشلة، أو امرأة، أو نفسي.

لا أعرف من

أنا "كليليو". تذكروني، ولكن لا تبحثوا عني.

عندي من الغضب ما يكفي لملء سلة حياتي المثقوبة عشرات المرات.

لقد امتهنت جميع المهن. لم يبقَ لي سوى مهنة القتل. أحياناً أغني. عندما أغني يسمعني الناس. كما لو كنت أستوقفهم. أستوقف قلبهم وحياتهم. لدي صوت يجتاح اللا نهاية ويتكلم بفرادة خاصة على حد تعبير "صاد". لدي صوت يجعل الحديد يرتعد على ما يبدو. فتتوقف العمارات عن سحق الناس. صوت يفكك قبضة الإسمنت. يجعل الجدران تكابد الحنين. يورِّد خدود الفتيات. لكنني لن أكلف نفسي عناء الغناء هباءً.

لمرة أو مرتين طلب مني أن أغني في حفل زفاف. نظر إلي الناس تلك النظرة المنبهرة والحمقاء التي ولّدت لدي الرغبة في تحطيم وجوههم. رأيتهم مجتمعين هناك في ثيابهم الجميلة وأحذيتهم المشدودة بشرائط تبدو كما لو أنها أصابع إضافية.

إنهم ينفون ما يحصل لهم، ينفون بؤسهم عندما يرون بسطة الطعام والشراب.

عندما رأيتهم هكذا تملكتني رغبة عارمة في أن أخمد ابتساماتهم.

قلت في نفسي لو أن عجوزاً طلبت مني أن أغني أغنية "مارينيلا" فسوف أرسلها لعذاب الرحمن الرحيم حقاً.

فعل الخمر فِعله بي. كأس أخرى من البيرة وأقلب الطاولات والعروس. ذات مرة، وثبت على العروس لأنزع حجابها لأنني كنت أعلم أنه قناع. لو لم يوقفوني لكنت قد فضضت ثوبها ومقدساتها أيضاً.

أعتقد أنني ولدت هكذا. أعتقد أنني رأيت المستقبل ولم أحبه. وعندما أرى المسامير أرغب في ابتلاعها، أو في جعل إنسان آخر يبتلعها.

لقد تجولت في السجون عدة مرات بسبب أفعال عنيفة وعدوانية. لم أمكث فيها مدةً طويلةً لأنني قاصر. العام القادم سيصبح عمري ثمانية عشر عاماً وستصبح العقوبات قاسيةً. حالياً يقوم القضاة بإسداء النصح لي. يرقُّ القضاة قليلاً عندما يرون نظرتي الطفلية، فينصحونني بنوع من الحنان اليائس بأن أحسّن

سلوكي. لكنني أعلم بأني لن أتغير. فأنا مبتلٌ بالمخاط والبول والبراز.

أنا "كليليو". ممتهن الأعمال القذرة. بالغُ مسامير الآخرين الصدئة. ماذا تريدون مني؟ إن المرء لا يتغير.

صاد:

يقال لي بأنني سأنجح. ينبغي أن نعلم أن النجاح لا يعني الشيء ذاته بالنسبة لجميع الناس. إنها كلمة بدلالات مختلفة. في حالتي تعني ببساطة أن الأبواب المغلقة قد تنفرج، مما قد يمكّنني من أن ألجها في غفلة من "ترومارون". يعلم جميع الناس أن الفقر أشدُّ السجانين وحشيةً. أما الأساتذة فهم يقولون إن كل شيء ممكن. يقصون عليَّ أنهم هم أيضاً كانوا يتعلمون دروسهم على ضوء الشمعة. لكنني أرى في عيونهم إبهام الفكر الذي نجم عن ذلك. يقولون لي يجب أن تتشبث بفرصتك وألا تعيق تنمية البلاد. من يقول ذلك؟ أنتم؟

إنهم يريدون أن يصنعوا منا أبطالاً حسب قوالب جاهزة معدة مسبقاً.

لقد زينوا لي سراب النجاح، كما لو كانوا يقولون لي بنظراتهم الزائغة، ولو دون يقين، أنت قادر على فعل المعجزات. هذا صحيح. عندي ذاكرة قوية. أنا إسفنجة: أمتص كل شيء. وأنا مثانة أطرح كل شيء. يبدو أن هذا يساعد على النجاح. الابتلاع والإطراح.

غير أنهم أفادوني أيضاً. فقد واظبت على دروسي. نجحت في امتحاناتي. وعشت حياة مزدوجة: مع الشلة في الليل، ومع العقلاء في النهار.

أتذكر اليوم الذي انفصمت فيه إلى شخصيتين: في درس اللغة الفرنسية قالت المعلمة، وهي امرأة شابة معلولةٌ صفراءُ مثل قميصها سرعان ما غادرتنا (ولذلك أقول إنها كانت هَهُنا في تلك اللحظة من أجلي تحديداً مثل قدر ينهمر على جمجمة غافلة)، قالت المعلمة إذن: سنقرأ قصائدَ كتبها شاعرٌ من عمركم. ما إن سمع الأولاد كلمة شعر حتى تظاهروا بالإقياء فسدُّوا آذانهم وراحوا يخرجون أصواتاً غليظة. ومع ذلك فقد قرأتِ المعلمة وسط الضجيج قصائد ورسائل ذلك الشاب بصوتها الرخيم المرتجف. بدأت بقراءة قصيدة "لا يكون المرء جدياً في سن السابعة عشرة"؟ في البداية قلت في نفسي إنه مخطئ ففي سن السابعة عشرة يكون المرء في منتهى الجدية بالنسبة لنا. ثم سمعت، بدلاً من صوتها، صوت مراهق كان يتحدث عن رغباته وتمرده وجراحه وأمانيه، وليس ذلك فقط بل كان يتحدث عن العالم أيضاً، عالمه وعالمي، وفجأة تكوَّن لدي انطباع أنه كان يتحدث لي فقط. نعم. بصورة مباشرة. كان يقول لي أنا أخوك. ثم قرأت قصيدةً يقول فيها إن للأحرف الصوتية ألواناً، وهذا بدا لي شديد الوضوح بحيث انتفضت قائلاً: إن للكلمات ألواناً بالنسبة لي أنا أيضاً. أكثر من الجزيرة بألوانها الزرقاء والبرتقالية. كانت الكلمات تنحدر من الحمم البنفسجية في رأسي. عندما فرغت المعلمة من القراءة قالت إن الشاعر يدعى "رامبو".

أنا أخوك.

أنا نظيرك. أنا صورتك. لقد انفصمتُ حقاً: كنت "صاد" الجالس جامداً على الكرسي الصلب (أو صلباً على الكرسي

الجامـد)، وإنـساناً آخـر مختلفـاً دون قيـود يتأمـل الأشـياء ويطـردهـا بفكره وتحدّيه وموته.

في ذلك المساء، وأنا متمدد على السرير، تناولت قلم التخطيط ورحت أكتب على الجدار قرب رأسي. كانت عبارات عن "حواء" بالطبع. هي وحدها تشغل تفكيري. رحت أكلمها وأحزر أين تذهب وبماذا تفكر وممَ تعيش. هي لا تعلم أني أعرفها لهذه الدرجة. كتبت الكثير عنها بحيث قلت في نفسي أحياناً إنني سأكتب عن حياتها أيضاً، عن حياة الآخرين وحياة الناس أجمعين.

كنت أقرأ في الخفاء بلا انقطاع. أقرأ في المراحيض، أقرأ في عز الليل، أقرأ كما لو كان بإمكان الكتب أن تحل العقدة في حنجرتي. أقرأ مدركاً وجود مكان آخر. وجود مساحة تزهر الممكنات فيها.

حوّاء:

الماء ودوّاماته. خطوطه، صفحاته، تحولات اتجاهه المفاجئة. أمضيت ساعات أنظر إلى النهر يجري هباءً. تنساب ثمة ألوان في شفافيته حالما تلامس الشمس سطحه. أنا أيضاً أنساب إلى الأمام مدفوعة من الزمن ومدفوعة من اللا شيء.

البيوت مقابلي. لا تخيفني. بل أتحداها أن تنظر في وجهي. إنها تحكم بالموت على كل من يولد فيها، لكن ذلك لا يغير في الأمر شيئاً. كل إنسان يولد محكوماً عليه. إن عيون الأطفال مخْضَلّةٌ بألوان السماء. أما أنا فقد عرفت برودة المعدن منذ مدة طويلة. واستمددت منه صلابته الخالصة.

كانت هذه المنطقة مستنقعاً عند أقدام الجبل. لقد طمروا المستنقع كي يبنوا عليه هذه الكتل السكنية، لكنهم لم يطمروا رائحة الأشنيات ولا تهافت التربة حيث لا تنمو سوى جثث الأشواك والأحلام. في السابق كانت بعض البيوت على وشك الانهيار. وعما قريب سيصبح لدينا برج "بيزا" الخاص بنا. إن منطقة "ترومارون" ثامنة عجائب الدنيا السبع.

جالسةً على هضبة قريبة، كنت أدخن وأنظر إليها. هنالك حرس أسفل كل كتلة. كانت النقاط المضيئة على سطوحها تشكل دائرة مغلقة. كان الأولاد يتعاهدون، يسنّون القواعد، يعلنون

ولاءاتهم: هي ذي ذهنية القبيلة. إذا كنت تتشبث بحياتك، إذا كنت فتاة، إذا كنت عجوزاً، فالأفضل لك أن تحيد عن طريقهم. كانوا يصبون على الأرض بِرَكاً من الزيت الذي كان يعكس وجوه السكان المرهقة وقفا خطواتهم. في هذه الساعة لا أحد منهم يمشي بل يركضون جميعاً. موكب الموت. فهم لا يطيقون تحمّل السر نفسه الذي تخفيه معظم النساء: ذلك الثقب الذي يشكل باباً مفتوحاً يتعذر ولوجه والذي يجهلون سره. حينذاك يذهبون إلى الصيد مثل المئات من الكلاب الضالة التي تذرع المدينة في جميع الاتجاهات وتمزقها.

حتى أن "صاد" المختلف عنهم قليلاً والذي يفكر بشيء آخر غير توسيع فُوَّهاتِنا كان ينتمي إلى شلة. لم يكن ليتحلى بالشجاعة الكافية كي يتميز عنهم فيكون وحيداً ويتبع سبيلاً آخر. لم يكن لديه أيّ فكرة عما يعتمل في داخلنا:

هذه المياه العكرة، هذا العالم الأخضر الضارب إلى الزرقة، وهذه الابتسامة البعيدة في ليلة مقمرة عندما تأتي الريح لتقول لنا أشياء تبعث فينا الحلم والحزن.

يتكلم "صاد" عن الشعر عندما نكون وحدنا، لكنه يفتقر لأيّ فكرة عن شِعر النساء.

ينفجر شِعْرُ النساء عندما نمشي، أنا و "سافيتا" سوية، ونضبط إيقاع خطواتنا لنتفادى الحفر. عندما نتظاهر بأننا توأمتان لأننا متشابهتان. نرتدي الملابس نفسها ونتطيب بالعطر نفسه. نضع الأقراط نفسها التي تخشخش على آذاننا. لديها حبة صغيرة على طرف أنفها

تشع كنجمة. شعر النساء هو ما نقرؤه في هذه الزاوية الضائعة التي تفتح باب الجنة كي تنقذنا من الغرق.

غير أن تلك اللحظات قصيرة. فعندما أصبح وحدي أغوص في كآبتي وأعلم أنني سأموت.

قررت أن أعود إلى البيت. لم يكن النهر عميقاً، لكنني وددت لو أبقى هناك وأسمع هدير مياهه بدلاً من الفظاظات التي تنهمر عندما أمر من أمامهم.

رأيت "صاد" بينهم. تظاهر بأنه لا يراني. كنت أعلم أنه خجول فابتسمت.

ثمة يد تمسك بعقبكِ وتسحبكِ بهدوء. يهرب نظرك. في البدء كنتِ تظنين مساحة الحركات والأفعال ضيقة. كنت تظنين أنها أسيرة تهوُّر الرغبة. ثم دخل العنف في المعادلة. ظلت اليد تسحبك بينما هدأت الرغبة. واتخذ الفعل أشكالاً أخرى وجنوناً آخر. ثم تطلب الأمر المزيد منها حتى تقلصت الحدود.

انتهت المجامعات السريعة وراء الأشجار أو في بيوت الخلاء. لقد تلقّفتك أماكن لم تعودي ترتابين منها بسبب تعوُّدك عليها. يدٌ تسحبك. في الليل لا تتعرفين على الوجوه، ولا على الأشكال. الألم مفاجئٌ في الليل. أو أنك في غرفة عارية مضاءة باللون الأحمر ترين من ينتظرك فتستسلمين له.

عندما تخرجين تسيرين في المدينة ببطء كما لو كنتِ لستِ فيها. تسيرين كي تتحرري من الذاكرة. تفتحين فمك لتدخل نسمة حارقة تخمد تهديد الذكرى. تعودين إلى البيت لتنامي، ثم تعتقدين أنك نسيت. تستطيعين أن تبدئي هكذا من جديد ودون أن تعلمي السبب.

اليد حول عقبك لم تعد تتركك بل تشدُّ خناقها. لم يعد لديك خيار. لا تستطيعين سوى أن تمحي، مرات ومرات، مظاهرك المثقلة دون أن تعلمي أنك بذلك تمحين نفسك أيضاً.

النسيان صلة الوصل بين الليل والنهار. النسيان هو الجدار الأملس الذي يحميك من نفسك. أصبحت صماء. لم تعودي تسمعين الأصوات الهادرة التي كانت تصمّ آذانك سابقاً. لم تعودي تسمعين الموسيقا المتناقضة جداً قياساً لنظرتك.

صاد:

حبيبتي ألا تريدين أن تعطيني اياه، أعطني إياه، إنك لتعلمين أني أريده.

كانتا تقومان بما يشبه الرقص بردفيهما على وقع الأغنية، تكاد لا تكون حركة بل تموُّجٌ يقرب وجهيهما، يباعدهما، ويقربهما من جديد. وفي هذه الحركة كانت سراويل"الجينز" تضيق على وركيهما مثل أيدٍ التصقت بكرتيهما.

حبيبتي ألا تريدين أن تعطيني إياه...

الاثنتان ترتديان قميصين مشدودين، أحدهما أحمر والآخر أبيض، متشابكين على نهديهما المكتنزين.

وأنا أغوص في المقعد، تركتُ حركاتهما تختلط مع البيرة والموسيقا، مما جعل سائلاً رتيبَ الإيقاع يهتز أسفل بطني. لقد جاءت نغمات القرار لتدغدغ أسفل بطني. وبالحركة نفسها كدت أن أنتفخ.

"حواء" و "سافيتا" ترقصان معاً. لا تنظران إلينا. ولا تنظران لأحد. ومن فمهما يخرج دخان التبغ مثل الخط العربي. تتقصف أكتافهما برتابة. تضيق ثياب "الجينز" بالرتابة نفسها. تخيلتُ سرواليهما ينسابان في الانثناءة. في الحفرة.

لم أعد أحتمل ذلك. نهضت ونزلت الدرج حتى دورة المياه. صادفت أشخاصاً. هناك غرف في أعلى مرقص مدينة "غراند بيه".

تصورت أنـي أصـعد مـع "حـواء" إلى الأعلـى. فتحنـا النافـذة لأن الغرفـة ما زالت تفوح برائحة الأجساد الكريهة التي دخلتها. دلف هـواء مدينـة "جراند بيـه" المالح إلى الغرفة الحمـراء وحوَّلها مـن غرفـة عـاهرات إلى غرفـة عرسـان. حللتُ محلَّ أكمـام "الجينـز". حللتُ محل الموسـيقا في ساقيها وعلى كتفيها. حللتُ محل السيجارة في فمها. حللتُ محل الهواء في كل مكـان مـن جسدها. وضـعتُ علـى بشرتها غـشاوةً مـن الملـح. تغيرتْ الموسيقا، أصبح إيقاعها أكثـر سـرعةً، ولكـن ظـل يطـن في رأسـي *"ألا تريـدين أن تعطيني إيـاه، أعطـني إيـاه، إنـك لـتعلمين أنـي أريده"*، وهمست *"أريده أريده أريده"*، واهتزت يداي.

تصبب وجهي عرقاً. حالما خرجت من دورة المياه أصبحت الرائحة الكريهـة تفـوح مـني أنـا. لكـن حـالي قـد تحسنت. عـدت إلى المـرقص حيث كانتا تتابعان الرقص دون أن تعلما أن بركاناً قد تفجر للتو.

تناولـت الـبيرة مـن جديـد. راح الآخـرون يـسخرون مـني. كـانوا يتكلمون عنها، يذمُّونها، ويغنون لها أغنيـات قـذرة. كـانوا يقولـون إن "حواء" تشلح سروالها الداخلي أسرع من ظلها. لم أكـن لأسمعهـم. ذلـك أنني الوحيد الذي يعلم من هـي "حواء".

"حواء" و "سافيتا"، لا نعلم ما الـذي يجمعهمـا. "حـواء" و "سـافيتا" همـا وجهـا القمـر. تسكن "سافيتا" في "ترومـارون" أيضاً، غير أن هـوةً سحيقةً تفـصل مـا بـين العـائلتين. إذ تتـصرف عائلـة "سـافيتا" كمـا لـو كانت لا تنتمي إلى "ترومارون"، وكأنها موجودة هنا بمحض الصدفة. صدفة الفقـر، نعـم. الموال نفسه ينطبـق عليهـا: الأب يعمـل في التجـارة، والأم تعمـل في تنظيـف أرض المستـشفى المـدني. هـو، يستنـشق رائحـة

البسطات، وهي، تشم رائحة الدم والأجساد المتعفنة. أما "سافيتا" فلا يبدو عليها أنها تتذمر من ذلك. ولو حصل مصادفةً أن التقت الفتاتان في الطريق فإن عائلة "سافيتا" تشيح بنظرها عن "حواء" مثلما تفعل الكلاب في الجماع. غير أن عيون الفتاتين تلتقيان وتتعانقان. حينذاك ترتسم ابتسامة بعيدة وخفية بحيث لا يراها إلا من يترصَّدها. ابتسامةُ الفتاتين، في العين السوداء والعين البرونزية، ارتجافُ بصيصِ ضوءٍ يتلاشى ما إن يلمع، ابتسامة الفتاتين مجرى ماء مشترك مثل الرضاب تقريباً، تلك الابتسامة بابٌ يفضي إلى مكان تعرفانه هما الاثنتان فقط. شأنٌ خاصٌ بالفتيات، ونحن لا نعرف أي شيء منه بالطبع، نحن الديكة المقاتلين.

في مدينة "غراند بيه" يتشابه الناس جميعاً في الليل. فهذه المدينة ذات الحمَّامات التي تعج بالسياح والطيبة نهاراً، تعج بالحشرات التي لا تخرج إلا ليلاً. فتياتٌ بألبسة قصيرة ورجالٌ ذئاب، هكذا تبدأ فرصة المطاردة. تتفتح المراقص على متاهة تتم الصفقات فيها بجميع اللغات: الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والروسية. الفتيات العاديات أكثر فأكثر شباباً. والأصغر منهن بناتٌ جئن من جزيرة مدغشقر و "رودريج" حيث يبدو عليهن أنهن أصغر من ثلاثة عشر عاماً. ومما يثير الشفقة صبرُهن على الانتظار، إذ تقف بعضهن جامدات في حين تقوم الأخريات بمحاولة إغواء أوائل السياح القادمين. كم أشعر بالعار والغضب!

هنَّ.. ما لديهن خيار.

أما هي؟ لا تقولوا لي بأن لديها خيار آخر. لا تقولوا لي أن هناك احتمالات. لا يوجد احتمالات. فهي تطوف وتتلذذ في الوهدات وبين

الأشجار. سعيتُ كي أرى الأفق الذي يرتسم في طرف عينيها. أنا متأكد أن هذا ما يقودها، وهمُ ضوء، منظرٌ تراه هي وحدها. أعلم أنها ليست محطة تتوقف الباصات فيها. ولو قال الآخرون عنها ذلك، فلأنهم يريدون أن يطردوا روحها منهم، لأنها تسيطر عليهم ولا يملكونها.

عدت إلى البيت. قاطعتها لعدة أيام. أما هي فقد تظاهرت بأنها لا تلاحظ ذلك.

حبيبتي ألا تريدين أن تعطيني إياه...

لا. بعد كل شيء أفضل أن أعود إلى "رامبو": *كانت الفتيات يذهبن إلى الكنيسة سعيداتٍ بسماع الشبان ينادونهن أيها الصبية*[1].

صبية، صبية، صبية.

يا لها من كلمة جميلة.

فيما بعد نسخت عبارة أخرى على جدار قرص الدرج أمام شقتها: *هو ذا المنديل المقزز الذي دسوه في فمي.*

لا أعلم إن كنت أتكلم عنها أو عن نفسي. أو عن "ترومارون".

١- دلالة على رغبتهن بالاضطلاع بدور الذكور. -المترجم

كليليو :

عند خروجي من مباراة كرة القدم دفعني شاب بدين. أمسكت على الفور بياقة قميصه الأصفر الخاكي وسحبته إلى الخلف. لو وقع أرضاً لحصل شجار شامل في الملعب. خاصة وأنها مباراة قابلت فريقين بينهما عداوة قديمة، ولو لم تعد الفرق في أيامنا تحمل أسماء مثل "Muslim Scouts" (كشافة المسلمين) أو "Hindu Cadets" (أشبال الهندوس). هرع أصدقائي ليمسكوا بي وينزعوا يدي عن كتلة اللحم المتعفن هذا. كنت أتفرس وجهه كما لو كنت أريد أن أنهشه. سحبني الرفاق قبل أن أطلق شجاراً. غير أنني أحب الشجار كثيراً. أنا أحب أن أتلقّى اللكمات وأن أضرب اللكمات. أحب أن أشعر بحرية غضبي مثل ريح صرصر تجتاحني وتمسح ذاكرتي.

لم يتركوني أتصرف. جروني نحو حاضرتنا، نحو سجننا. امتطيت دراجة "كني" وانطلقت قبل أن يستطيع أن يوقفني. تبعت مساراً دائرياً طويلاً في "بور لوي" مسترشداً بتربتها الحارة. مررت بشارع "كوردري" حيث عبقت روائح السمك المملح في أنفي، قمت بجولة طويلة في شارع "ويلنتون"، نزلت شارع "بودريير" حيث ألقيت السلام على قدامى العاهرات من خلف الجدران الحجرية، وعدت نحو "شان مارس" حيث رمقتني القلعة بعينها السوداء. في الطريق كنت أدفع الناس، أصعد على الأرصفة، أنساب بين السيارات، أكاد أنقلب

جرَّاء الحافلات التي تنفث دخانها الأسود على وجهي. كانت الشتائم تنهمر عليَّ في كل مكان. فأضحك لأنهم يلاحظونني. لأنهم ينتبهون لي جميعاً. وأنا أيضاً كنت أشتمهم بإشارات من يدي. خدشت أثناء مروري مركبة صحراوية ذات واقية تستطيع أن تسحق جواميس وهمية. كانت تقود المركبة امرأة صغيرة جاثمة خلف مقود أكبر منها. رأتني أمرر مفتاحاً على دهان سيارتها الجديدة، أنزلت زجاج نافذتها، لكنني نظرت إليها مبتسماً عندما وصلت لمحاذاتها، لم تستطع أن تقول أي شيء، لعقتُ شفتيَّ فاحمرَّتْ المرأة خجلاً، نعم أؤكد لكم أنها احمرت ورفعت الزجاج كي تحافظ على الهواء المكيَّف الذي لفح وجهي، تغضَّن وجهها كما لو كانت ستشرع في البكاء، ليس هذا ظريفاً، أن تكون هذه المرأة الشمالية حنونة بحيث لم تستطع أن تشتمني، أرسلت لها قبلة بطرف إصبعي، حفظت في ذاكرتي رقم السيارة، وتابعت طريقي وقد اعتدل مزاجي.

تدور الأشياء في رأسي. لقد سرقتْ مدينة "بور لوي" شيئاً ما مني. هناك الكثير من الناس، الكثير من السيارات، الكثير من العمارات، الكثير من الزجاج الأسود، الكثير من الأغنياء الجدد، الكثير من الغبار، الكثير من الحرارة، الكثير من الكلاب الضالة، الكثير من الجرذان. لم أعد أعلم أين أذهب. تابعت جولتي الدائرية. كنت أدور حول نفسي.

أخي الأكبر "كارلو" قد هاجر. ذهب إلى فرنسا منذ عشر سنوات. كنت صغيراً آنذاك. كان نموذج البطل بالنسبة لي. قال لي عندما رحل: سأعود لآخذك. ما زلت أنتظره. لكنه لم يعد قط. أحياناً

يتصل، ولكن من أجل أن يخبرنا بسفاسف الأمور. لا أعلم ماذا يفعل هناك. غير أنني من نبرة صوته أعرف أنه يكذب وأنه لم يفلح. من نبرة صوته أعرف أنه قد مات.

ولذلك أريد أن أَقتُلَ أنا أيضاً.

حواء:

منديل مقرزز. نعم لقد دسوه لي في فمي أنا أيضاً منذ ولادتي.

واقفة قرب النافذة، أنفث دخان التبغ في الليل. أراه يتلاشى كما لو أنه أخذ معه قطعة مني. لن تقول أمي أي شيء ولن تشعر بأي شيء عندما تدخل إلى غرفتي بعد أن تتردد طويلاً أمام بابها المغلق. لقد قتلتْ إحساسها عمداً كي لا تشعر بالحياة أو تتحسَّر عليها. جلّ ما تريده حياة هادئة بعيدة عن الاضطرابات. أهذه هي الرؤية الوحيدة الممكنة بالنسبة لمن أنجبن بحكم الغريزة؟

إنها لتبذل جهوداً مضنية كي تخفي قباحة الشقة، فتلصق صوراً تقصها من المجلات أو الرزنامات التالفة. كانت جدران الإسمنت تزهو بصور "فوجي ياما" وأمامه تقف يابانية حسناء، وصور هضاب سويسرية عليها أبقار أنظف من معظم الناس هنا، وصورة لنابليون وهو يضع التاج على رأسه، وصورة للملكة "إليزابيت" الشابة وهي تحمل بين ذراعيها طفلاً متورد الوجه، وصوراً عديدة لـ "جوني" وهو يقف أمام الميكروفون. لدينا مقاعد بلاستيكية حمراء وزرقاء وصفراء وخضراء بألوان علم جزيرة "موريس". لدينا في زاوية الغرفة شبه كنبة ورثتها أمي عن أمها. وعلى طاولة من الفورميكا هناك مصدر سرورها الوحيد: تلفاز وجهاز تسجيل يملآن نهاراتها بصراخهما. في المطبخ لا يوجد شيء تقريباً سوى المعلبات الجاهزة والخبز البائت والمعكرونة

والسردين. إنها لا تطبخ للعائلة. كل واحد منا يأكل وحده. أنا لا آكل تقريباً. أتناول قطعة من الخبز، أحمصها على النار حتى تتفحم، ثم أبللها بالشاي وأتناولها. أو أتناول قليلاً من الزبدة أضعها فوق قطع من بسكويت "ماري" ذات المذاق التافه. لم يكن ذلك يهمني كثيراً.

إنها تتسربل دوماً بثياب مقززة. لقد نسيت أنها امرأة. إنها مجرد شيء. لا أدري ما هو.

أنا لا أهتم بكنبتها الجلدية، ولا بمسلسلاتها البرازيلية، ولا بأحلامها الغائمة. بصورة دائمة أقول لوالديَّ "لا". حتى أن "لا" هي أول كلمة لفظتها. سألني أبي عندما أصبحت في سن الإدراك: ألا تعرفين أن تقولي نعم؟ أجبته: لا. انهالت صفعةٌ على وجهي دون أن أتوقعها. كانت الصفعة الأولى. لا بد أن عمري كان أربع سنوات حينذاك. ثم أصبحت الصفعات اعتيادية مثل نوافذنا التي لا تطل على شيء ومثل الصور الملصقة على الجدران.

غير أنني أعود بذاكرتي إلى تلك الصفعات الاعتيادية. فيبدو وجه أبي اللاهث من الغضب مضحكاً. إن الحرق ليشفى بسرعة لكن ذكراه تظل باقية.

منديل مقزز. لم يكن ذلك ليتوقف. ظلت العبارات تطرق قرص الدرج كل مساء.

ما لون ضحكتك؟ أنا لا أعرفها. لديك ثقبان تنزفين منهما. أنت دليلي على الطريق الدامية. وأنا أطاردك كي أعثر على ملامحنا.

أيلول ذهباً على الأبراج. فهي تغرق في النشادر والغروب.

التحقي بي كي أجعلك تموتين.

كنت أعلم بالطبع أن "صادق" هو من يوقظ أصداء البناية، ويطرح عليَّ كل مساء فزورة جديدة كنت أرفض أن أجيب عليها.

لا أريد أن أشترك في هذا التواطؤ. في الليل أقرأ ديوان الشعر فأعرف من أين استوحى إلهامه. فما يكون مني إلا أن أستعين بكلماته.

عندما أقرأ الديوان الذي أعطاني إياه، ترقص الكلمات وتحاول أن تحيط بي. لكني أصك تفكيري تماماً فيسقط الديوان من يدي بسبب تلك الصخرة الموجودة في قلبي.

أنام. أستيقظ. يجتاح العفن غرفتي. مياه الحمام بجانبها ظلت تقطر طوال الليل. الرطوبة ترشح من الجدران. تكوَّن لدي انطباع بأنني أنا التي ترشح. سمعت أبي يدفع أمي. سمعت سلبية أمي. غداً ستتشح ذراعاها بالكدمات الزرقاء. غداً ستمشي مثل البطة. غداً ستأخذ عيناه لون الكبريت فيحس بالحموضة والرجولة.

أيلول ذهباً على الأبراج، رحت أنشد هذه الجملة في الصباح بصوت عالٍ كافٍ لكي يسمعني. فنظر إلي نظرةً خبيثةً.

ذات ليلة دخل غرفتي. تظاهرت بأني نائمة. راح ينظر إلي. ومكث مدة طويلة.

لا أعلم بماذا كان يفكر وأيّ بارقة مرت في خلده. أهو ما زال أباً؟ أما زلت ابنته؟ ماذا يدريني؟

منذ ذلك الوقت بدأت أطيل من قيامي بأموري الشخصية كي أمنعه من الدخول. كنت أعلم أن ذلك يزعجه ويربكه فلا يجد تفسيراً له.

بيد أن النقمة كانت تنمو في داخلي مثل حركة المد في البحر. لن يطول هدوئي إذن.

صاد:

"سأنتحر في اليوم الذي أقول فيه لرجل أحبك"، قالت بابتسامة ساخرة.

الطريق ملتوية. أخذتها باكراً جداً ذات صباح على دراجتين استعرتهما من غير إذن. قدتها إلى صرح "ماري" و "ران دو لا بيه" وسفح الجبل. ومن هناك في الأعلى كانت السماء تحمر خجلاً تحت نظراتنا. راحت تلك السماء التي رأت كل شيء تلعب لعبة الإغواء. هذا كل ما وجدته كي أريها شيئاً مختلفاً عن منطقتنا. إطلالة على منظر يختلف عن جفاف الليالي الرمادية.

لجهة الغرب هناك الشاطئ الهادئ جداً في الصباح بحيث لا تظهر فيه أيّ ارتجاجة في الماء. مياه منبسطة يمكننا أن نسير فوقها. هي ذي الأعجوبة الأولى. هوذا وهمنا: أن ننطلق على رؤوس أحلامنا. كانت الزوارق التي لم تعد تنقل المسافرين تبدو مع ذلك وكأنها تنادينا وتدعونا كي ننساب على الماء معها. أو أنها ستمُدُّ، بدلاً من الأشرعة، أجنحةً وتحملنا إلى السماء ونحن فوقها أطفال مبهورين. والأعجوبة الثانية كانت المدينة القليلة الصخب بألوانها الخضراء والزرقاء والبرتقالية. كانت تشبه تلك المدينةَ التي يتكلم الأجداد عنها، عندما كان السكان الحفاة يستقبلون أشعة الشمس الأولى على عتبة أبوابهم، ويسمعون ضحكات العابرين وشراهة الطيور على أشجار المانجا في آن واحد. كانوا يقولون

إنهم كانوا يشربون الشمس شرباً قبل أن تصبح حارقة. هذا يمكّنكم من أن تبدؤوا نهاركم مثل قدح صغير من كحول "الروم" يصل إلى المعدة. وبالطبع لم يكن ذلك يمنعنا من أن نتناول قدحاً من "الروم" أيضاً - فوجود شمسين في المعدة أفضل من وجود شمس واحدة. أليس كذلك؟

قلت لها بصمت: هي ذي مدينتك. خذيها من راحتي. الحسي رطوبتها المالحة. انظري للقلعة في عيونها: فهي تشطب السماء برفضها.

ثم امتطينا دراجتينا المسروقتين، لا المستعارتين، وبدأنا تحدي نزول الشوارع ذات المنعطفات الكثيرة شارعاً فآخر. لم تتردد بالطبع. كانت تنظر إلي بابتسامة ضفدعة وتدير ظهرها لي وتغيب في النزلة. كنت أتبعها. كانت الريح الساخنة تلفح وجنتينا. وكان شعرها ينسدل إلى الخلف. كات تصرخ وتضحك في آن واحد. عندما وصلنا إلى الأسفل دُسْنَا بكل قوتنا كي نذهب صعوداً في الشارع، ونعاود النزول من الشارع التالي. وسرعان ما أصبح العرق يتصبب منا.

فجأة وبينما كانت تندفع بقوة، عَلِقت عجلة دراجتها في أخدود فانفصلت. أسرعت كي أحاول اللحاق بها بعد أن رأيتها تتقصف إلى الأسفل مثل كتلة من الحديد واللحم، لكنها انقلبت يساراً على أرض معشبة بدلاً من أن تتدحرج إلى أسفل المنحدر. توقفت قربها مرعوباً لكنها كانت تقهقه ضاحكةً.

تركت دراجتي لأرتمي عليها وأثبتها على العشب. شعرت بجسدها يرتعد من الضحك أو الخوف لا أدري. لعرقها رائحة طيبة. لم تكن ترتدي الكثير من الملابس. شعرت بعظامها وكل تكوينات لحمها، مما أثّر بي فوراً، فغرست أنفي في التجويف الواصل بين عنقها وكتفها.

قلت لها: قولي لي إنك تحبينني.

أجابت: سأنتحر في اليوم الذي أقول فيه لرجل أحبك.

كانت هي المصلوبة الذراعين، وكنت أنا المصلوب بعباراتها.

لا أدري إذا كانت قد انتبهت لذلك، لكنها ابتعدت وصعدت على الدراجة من جديد.

قالت لي وهي ترحل: أشكرك على النزهة.

كان حزام سروال "الجينز" منخفضاً مما يظهر شريطاً من لحمها البني المذهَّب وخطاً أسود هو أثر سروالها الداخلي. كان شعرها يخفي ظهرها. وددت لو أشربه.

عند عودتي تعرضت لاستجواب دقيق من الشلة. ماذا فعلت؟ ماذا حصل؟ ماذا قالت؟ رأوا خيبتي وسخروا مني. قالوا لي بلا خبث: الجميع يمارسون معها إلا أنت. لكنهم كانوا يعرفون أن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً، مما جعلهم يتركوني بسلام. مع حبيبتي الجميلة، مع وصيفتي، مع ملكتي.

لا أحد يعلم أن بإمكان المرء أن يحب بهذه الطريقة في سن السابعة عشرة. أعوم في مياه "حواء" الليلية. أغطس في رؤيتها المضطربة. أغرق في وحلها وبراءتها. لا يهمني من هي وماذا تفعل. أنا غمزة العين السوداء فوق حزام بنطالها. أنا كعب قدمها الدائري العاري في حذائها القماشي. أنا صدى قوتها وتحدِّيها وضحكتها النادرة.

لا أرى فتاة أخرى سواها. لم أعد أكتب العبارات على الجدران بالحبر الأسود بل الأبيض، وراح القلم يمتلأ ويفرغ من تلقاء نفسه بغزارة تدفق لا مثيل له.

حواء:

نظر المدرس لي مبتسماً بسفاهة. إنه لطيف لكنه متكتم. أعلم أنه يترصد أقل حركة مني: يترصد عينيَّ وصوتي وصمتي. لو وجد خرم إبرة لتسلل منه. رأيته يأتي. وكنت أنتظره. أحتاج لدروس تقوية. وسوف يعطيني إياها.

لا حاجة لأن أحاسب نفسي. فأنا أتبع قانوني الخاص. لو كنتم من "ترومارون" لأدركتم ذلك. والشيء الوحيد الذي يربطني بالحياة هو "سافيتا". عندما نخرج معاً نتحدث أحاديث حميمة بحيث تشم كل واحدة نَفَسَ الأخرى فتعرف ماذا شربت. لبيرة "فينيكس" طعم عذب. يظهر أثر الرغوة على أعلى شفاهها القرمزية. عندما تتلامس أيدينا تتشابك بصورة رائعة. إننا نتمتع بالحركات نفسها وبالإيقاع نفسه. ولا حاجة لأن تنظر الواحدة إلى الأخرى كي تعرف بماذا تفكر.

بدأ ذلك في اليوم الذي وجدتني "سافيتا" فيه تحت شجرة في باحة المدرسة. كنت خارج الدرس. لا بد أنني قد التقطت عدوى ما. كنت أرتجف وأشعر بالبرد فتصطك أسناني. أعتقد أنني كنت أتصبب عرقاً. حصل لي ذلك بسرعة بحيث لم أستطع فعل أي شيء. كان جسدي المنهار بكامله يرفض أن يعمل. نزعَتْ صُدْرتها ووضعَتها على كتفي. لم تقل لي أي شيء. ما بك؟ ماذا فعلوا لك؟ من أين التقطت العدوى؟ لم تقل لي أي شيء على الإطلاق. بل ساعدتني على

الوقوف وعدنا سوية. كانت تفوح برائحة التوابل والضباب. وكنت أعرف أن وجهي غائر وآثار الصفعات تبدو على وجنتيَّ مثلما تبدو على الأطفال الذين اقترفوا ذنباً كبيراً.

قلت لها: لا أريد أن أعود إلى البيت.

قالت لي إنها لا تستطيع أن تأخذني إلى منزلها بسبب والديها، لكنها ستبقى معي حتى أصبح مستعدة للعودة. جلسنا قرب النهر. لم يبدُ عليها أنها لاحظت الرائحة الكريهة التي تفوح مني. لا أدري في أيّ لحظة وضعتُ رأسي على ركبتها ونمت. ظلت ساكنة لا تتحرك. عندما فتحتُ عينيَّ وجدتُ فوقي عينيها المجردتين.

سألتها: ماذا بك؟

أجابت: أفكر بمعاناتك.

قلت لها: ليس صحيحاً. أنا لا أعاني. بل اخترت حياتي.

أجابتني: ولهذا السبب ترتجفين من البرد في وقت تصل فيه درجة الحرارة إلى ٣٥° في الظل؟

أردت أن أنهض غاضبةً لكنها أمسكت بي. ولم تضف أي شيء.

مرَّرتْ يدها على جبيني. ثم انحنت نحوي وقبلتني.

طعم فمها لا يشبه طعم فم الرجال. كان عذباً جداً بحيث أغمضتُ عينيَّ وتلذذتُ به. تنشقته بعمق داخل فمي.

بعيداً عن سطوة الرجال، أصبحنا سعيدتين، سعيدتين لبضع لحظات. كان عطر دافئ يفوح من سُرَّتها. كنا نتقدم على رؤوس أصابعنا. كان الأمر غريباً جداً. كنا نبتسم كالمخمورات ونرقص على حبلٍ ممدودٍ ما بيننا.

وأخيراً عادت كل واحدة منا إلى منزلها. غير أنني أمضيت الليل على النافذة، أنظر في اتجاهها متدثرةً بصدرتها القرفية اللون مثل لون جلدها، وكنت أعلم أنها تفعل مثلي.

لم تطرح عليَّ أي سؤال قط. ماذا سيبقى لك بعد كل هذه المقايضات؟ إنها تعرف الجواب. جسدي من المعدن، والمعدن عصيٌّ على الفناء.

كنت أدندن كلما مر المدرس من جانبي. كانت يده ترتجف على دفتري. كان مثيراً للشفقة إلى هذه الدرجة. كان يبدو عليه منظرُ منتحرٍ يريد أن يموت غرقاً. كان الاضطراب بادياً على ملامحه. عندما كان يفتح فمه يتكلم بما يشبه النقيق. يتوجب عليه أن يبلع ريقه كي يستطيع أن يتكلم. كان يدور حولي في دروسه مما كان يضحكني. وكان يلاحظ ذلك.

أضحك لأنه لا شيء جميل بي. أنا لا أفهم أبداً هذه القدرة التي أملكها. لدي شعر كثيف متلبد بحيث تتكسر فيه جميع الأمشاط عندما أسرِّحه. الأمشاط تخاف من شعري. وما تبقى من جسدي عبارة عن خشبة عليها ظلال أشكال ومكوَّرات عرضية غير جذابة. تتركز ملامحي وسط وجهي المثلثي الشكل. فأجد أنني أشبه فأر القصص المصوَّرة.

ربما أنه لهذا السبب يضع الرجال مصائدهم في طريقي. وربما أنني لهذا السبب أيضاً أقع فيها.

إن "ترومارون" تطلق الرصاص عليَّ في بطني ومثانتي.

في المدرسة يفرقوننا بهدوء. أو أننا ننزل نحو الممر الجانبي الواحد تلو الآخر من تلقاء أنفسنا. معظم التلاميذ يحسون بالفرج عندما يتخلصون من رائحة الحي الحامضة. أما من يبقى فهم الطلاب الأكثر اجتهاداً والطلاب الأكثر يأساً.

أنا كنت أبقى. لكن جهد البقاء كان يضنيني. منذ أن بدأت القصة مع المدرس أشعر بأنني ثقيلة. إنه يقبض ثمن المعرفة. إنه أسوأ من الآخرين. على الأقل من ناحية ما يرغب بالقيام به، حتى لو كان لا يجرؤ إلى الآن على أن يقول لي صراحة ما يريده، سواء أكان ذلك بدافع من الجبن أو النفاق. كان كل شيء أتعلمه يترك جرحاً في جسدي. إن المعرفة مؤلمة وتكلفك غالياً كي تكتسبها.

عندما كان الآخرون ينتبهون لمحاولته ترويضي، كانوا يبتعدون عني. كان ذلك يسلّيهم. أنا الوحيدة على المسرح. والآخرون جميعهم مشاهدون. كنت أشعر بنفسي عاريةً فأغمض عينيَّ وأصك أسناني. ثم ألعب دوري. كنت أبقى دائماً تلك التي ينظرون إليها من بعيد إلى أن تلامسني الأيدي.

إن أيدي الرجال تستحوذ على المرأة حتى قبل أن تلامسها. عندما يتوجهون بتفكيرهم نحوها تكون قد أصبحت ملكهم سلفاً. إنهم يعتبرون رفض المرأة إهانةً لهم لأنها في هذه الحالة تسلبهم ما كانوا قد تملكوه.

عندما تدخل يدهم تحت قميصي، كأنهم يطلبون مني أن أشلح جلدي كي يستطيعوا تلمس أعضائي، وربما أن أوقف قلبي عن الخفقان. إن طلباتهم لا حدود لها. وعما قريب لن يبقى شيء يأخذونه، لكنهم سوف يستمرون مع ذلك.

ولكن لماذا ينبغي عليَّ أن أستسلم لهم؟

عبر الجرح. عبر السر. كي تتأكدي، بغضب وشراسة ويأس، مما يفكرون به جميعاً، هناك، في الخارج.

كي تكوني. كي تصبحي. كي لا تغيبي عن ناظريكِ. كي تخرجي من شرنقة السلبيين والعاطلين والخائبين، كي تخرجي من بقايا النظرات، من رصاص الأيام، من ساطور الزمن، من ظل الأحياء، من رحيل الموتى، من حصى البسطاء، من العفن، من العري، من القبح، من السخرية، من الضحك، من البكاء، من اللحظات، من الأبد، من المختصر، من الثقيل، من الليل، من النهار، من العصر، من الفجر، من صور العذراء، من الشيطانات الغائبة.

أنت لا شيء من كل هذا.

أن تخرجي من كل هذا، أن تعاكسي الباحثين والمطاردين، أن تقلعي عن المدرج، أن تخدعي الكلاب، أن تبدلي شكلك، أن تكملي تغيير جلدك وانسلاخاتك وانمساخاتك، أن تتركي شعاعاً فضياً يفوح بالمرأة

وثنايا الليل، أن تتبعي طريقاً مليئةً بالأشواك تقودك بعيداً إلى الأساطير الغابرةَ وتتيح لك أن تخرجي جديدةً تماماً، نظيفةً من جلدك، ماشيةً دامية مجتازةً كل الإشارات الحمراء في حياتك، أن تكوني، أن تصبحي، أن تموتي.

تخاطبين نفسك: أنتِ لستِ من هنا. ستظلين تقولين ذلك حتى نهاية الأشياء.

كليليو:

الظهيرة تحرقني. منتصف الليل يحرقني. كل ساعة تحرقني. من المستحيل أن أتوقف عن الاحتراق. واقفاً على سطح العمارة كنت أغني بأعلى صوتي. غنيت "بلو" ثم "راب" ثم "روك" ثم "سيجا"، لكن الغيوم كانت تخنق صوتي ولا تكترث بي، كنت أردد كل مرة أغنية "Krapo kriye" (صرخة الضفدع). نعم أنا ضفدع، أصرخ في الفجر، أصرخ في الغسق، وقد بُحَّ صوتي من الغناء. واقفاً على سطح العمارة انتبهت أنني أصرخ كي أستمد القوة لأقفز. وأن الأغنية تقول إن الأم تنام مفتوحة العينين، وإن الأم عبد الأب، والأب عبد رب العمل، وإن الأم في هذه الحالة عبد العبد الآخر، وأن هذا هو أسوأ ما في الأمر، كيف يناضل المرء لصالح عبدٍ لعبدٍ آخر؟

وأنا؟ ماذا أنا؟ من المؤكد أنني لست عبداً حتى لو كان هناك، في مكان ما من سلالتي، رجل وامرأة قد نظرا إليَّ وهما مقيدان وقالا لي: "ستصبح حراً فيما وراء الزمن". أنا لست عبداً. بيد أنه يبدو لي أنه لا يوجد سوى العبودية حولي. إنهم لا يستطيعون أن يتقدموا إلى الأمام، أو يلجوا عتبةً ما، أو يديروا ظهرهم. فهم يعتقدون أنهم أحرار لأنهم صنعوا قيودهم بأيديهم.

ومن جهة أخرى فإلى أين يوصلهم الهروب إلى الأمام؟ نحو نهاية الجزيرة التي هي نهاية العالم. لا نستطيع أن نرحل. لا نستطيع أن

نهـرب إلا إذا طرنـا. لا نـستطيع أن نتحـرر إلا إذا متنـا. سـأحرر جميـع أصدقائي قبل أن أحرر نفسي.

أنـت يـا "كـارلو"، قـد اخـترت الرحيـل مـن قبلنـا. تقـول إنـك في فرنسا وأن هذا هو صوتك الذي أسمعه على الهاتف، لكنني أعلم أن ذلك ليس صحيحاً. هذا ليس صوتك. هذا صوت رجل مزيف يحاول أن يلفظ الراء غَيناً كالفرنسيين في حين أنها لا تلفظ على هذا النحو عندنا. رجل مزيف يتظاهر أنه فرنسي في حين يقول كل شيء فيه أنه "موريسي". رجل مزيف يتحدث عن سيارته من طراز "رينو" في حين أنني أعلم أنك لا تحب سوى السيارات اليابانية، فقد كنت تقول إنها أفضل سيارات في العالم. رجل مزيف يحاول أن يتهربَ من أسئلتي في حين أنك قلت لي إنه لن يفرِّقنا أي شيء، وإنك ستأخذني هناك حيث أنت.

لا. لقد صَنَعَتْ هذه الخيانة منك رجلاً آخر. لستَ "كارلو". تناولتُ سكيناً وكتبتُ اسمك على فخذي: "كارلو". والآن، وبعد أن تهجَّى دمي اسمك أصبحتَ فيَّ، وأصبحتَ أنا. أنا اثنان. أما من يتحدث من بعيد كما لو كان قد فقد ذاكرته، فهو شخص مزيف.

الضفدع يصرخ على السطح. يعلن قدوم الليل.

يصرخ. يصرخ. يصرخ. يقطر دم "كارلو". إذا فَرَدْتُ ذراعيَّ فهل أطير؟

أجبني يا أنت الذي يعلم.

حواء:

إنه يساعدني بالطبع.

كان ذلك لعبة هاتِ وخذ.

كان يعطيني الكتب ويصحح مواضيعي بمزيد من الاهتمام. لكن الأمر كان واضحاً جداً حتى لو كان يجتهد في الصف على ألاّ ينظر إليّ أكثر من الآخرين، وألاّ يرمقني بنظرة اشتهاء من طرف عينيه المتحركتين البنّيتين.

لا يخطئ أحدٌ رائحةَ رجلٍ يدور حول امرأةٍ يشتهيها. ولا يخطئ أحدٌ معرفة خطوته المرتجفة باتجاهها.

قال لي إنه سيعطيني دروس تقوية. قال لي أن أنتظره بعد الدوام في غرفة "علم الأحياء" الصغيرة التي يحتفظ بمفتاحها.

كانت مطاردته مضحكة.

من الواضح أنه لم يعتد على ذلك. فقد احتاج لأسابيع كي يتشجع فيطلب مني أن أبقى بعد الدوام. وكان مندهشاً لأنني قبلت بسرعة وبهذا القدر من البرودة. وإذا كنت قد فهمت نيته، فقد تساءل كيف يمكن أن يكون الأمر بهذه البساطة؟

مدَّ المفتاح إليّ وطلب مني أن أذهب إلى القاعة ثم جاء بسرعة.

أفترض أنه سوف يذهب ليبحث عن شجاعته الضائعة في دورة المياه. ربما أنه سيرطّب بشرته الملتهبة بالماء البارد. أو يجلب الواقي الذكري من السيارة، لا أدري.

ذهبت إلى القاعة الصغيرة التي تفوح منها رائحة الكبريت والفورمول. كانت خطواتي تطقطق في الممر المفروش بالفانيلا التي داستها آلاف الأقدام. وكان شيءٌ ما يهرب من النوافذ المغطاة بالغبار. لم يكن لدي الوقت الكافي لأرى إذا كان هذا الذي يهرب هو أنا.

لقد أتقن إخراج المشهد بعناية فائقة.

فوضع الطاولة في الظل إلى الجدار في صدر الغرفة. سنجلس جنباً إلى جنب إذن. وسأُحشَرُ في الزاوية. الطاولة عريضة وصلبة. وهناك أيضاً فرشة من القش على طول الجدار. وهكذا يمكن أن تتغير وظيفة الغرفة بلمح البصر.

عندما دخل وجلس إلى جانبي، لاحظت أنه لم يبرد. فهو يتصبب رغبةً باستمرار. غمغم بارتياب. فتح كتاباً كيفما اتفق وحاول أن يناقش معي موضوعاً لا على التعيين. أراد أن يستمر في التمويه حتى يتأكد من أنني لن أبادر للخروج صارخةً. طرح عليَّ أسئلةً ولم يلحظ أنني اخترت أن أجيب على غيرها. وهذا ما أضحكني.

اقتنص فرصته أخيراً من هذه الابتسامة فوقف مقابلي وأخذ وجهي بيديه، وسعى فمه لأن يبحث عن فمي فلم يجد دريئته من فرط ارتباكه.

أحبكِ، أحبكِ، قال لي ذلك وهو غير متماسك بسبب شدة الرغبة.

كان أخرقَ لدرجة أنني شعرت أنني هوجمت.

أيعتقد أنني سوف أصدقه؟

كان لسانه في أذني.

التصقت كلماته بالكتلة الشحمية.

الرطوبةُ والنَفَسُ الحارُّ والتلمُّسُ، كل ذلك كان يثير في الاشمئزاز حقاً.

رغبت في أن أدفعه، لكنني محشورة إلى الجدار.

راحت يده تتجول على جسدي، سمعته يهمس ألا تلبسين رافعةً للنهدين، ثم لم يعد يقول أي شيء، بل كان يتصرف ويتخبط ويغرق.

تركته يتصرف.

لم يفلح في نزع ملابسي مما استوجب مني أن أنزعها له.

ابتعد قليلاً وحاول القيام بالإيلاج.

اصطدم رأسي بالجدار عدة مرات، لكنني شعرت بأنني مرهقة فحسب.

ضاع في جسدي.

كان هزيلاً ببعض الأماكن ورخواً بأماكن أخرى. رحت أنظر إليه فرأيت الدائرة الصلعاء وسط رأسه. لم نكن قد لاحظنا تسرب شعره من قبل بسبب طول قامته. تكوَّن لدي انطباع بأنني أصبحت أعرف فيه أشياء تفضحه وتحطمه.

زال التقزز الذي شعرت به في البداية. أصبحت الأمور عادية. وكالعادة لم أعد أحس بأي شيء. استبسل في مسعاه لكنه لم يفلح. فتوسلني أن أفعل شيئاً ما. هززت كتفي ثم وافقت.

بينما كان يمسك بشعري، أعتقد أنني وددت لو أدخن سيجارة.

سيجارة لتمويه مرارة فمك. كنت تتصرفين مفتوحة العينين. سبعة عشر عاماً ولا تحلمين بأي شيء. سوى بمتابعة السير هكذا بجوار نفسك هاربةً من ظلالها.

سبعة عشر عاماً وتعتقدين أنك تعلمين كل شيء. وجهك مليء بالبثور ويداك مرهقتان.

حواء:

عندما أمرّ تحت أشجار المانجا تسلّم عليَّ بمودة كما لو كانت تعرفني. أعتقد أنني أشبه أشياء كثيرة عضوية ومعدنية وكائنات غريبة أخرى، لكنني لا أشبه المرأة. أنا ظل المرأة فحسب. صدى المرأة فحسب. مجرد الفكرة المشوهة التي يشكلها الناس عن المرأة.

في الواجهات والمرايا والعيون يمر وجهي هارباً باستمرار. لا أريد أن أسلم روحي لأحد. يمكنني أن أصبح أي شيء إلا روحاً أسيرة. إلا طائراً منتوف الريش. لو صادفتُ نظرتي لجمّدتني وأرعبتني. كنت أغضب من نفسي لأنني عدوة نفسي لهذه الدرجة.

ذات يوم، غداً، فيما بعد: لن يبقى أي شيء.

في المنزل هناك لعبة خفية تقوم على إثبات من هو الأكثر مهارةً في عدم طرح الأسئلة الضرورية. كانوا يرونني ولا يرونني. رائحة الكذب تطاردني ما إن ألج عتبة البيت.

كل يوم أعدّ خطواتي قبل أن أعود إلى منزلي. أو بالأحرى إلى منزلهم لأنه ليس منزلي. لم أختر أن أعيش فيه. لم أختر أي شيء. لم أختر حتى ولادتي. أريد أرضاً مجهولة والبحرَ الذي يلعقها على حوافها، وشجرةَ "فيلاوٍ" فريدةً ضامرةً ودميمةً مثل شيخ عجوز تهزُّه الريح، وأنا أجلس تحتها دون أن أفعل أو أتكلم بأي شيء. أحياناً أصعد إلى أعلى غصونها وأنظر إلى البعيد. لا يوجد أي شيء في البعيد سوى البحر،

والبحر أيضاً. حركة البحر المستمرة ذات الجرس العذب. كأنه يهدهد الأرض. يستيقظ قمر. أنكمش أسفل شجرة "الفيلاو" وأغط في النوم. ربما أنني لن أستيقظ أبداً.

لم تنحني أيّ جنية على سريري. عندما فتحتُ عينيَّ اعتقدت أنني رأيت حياتي مقابلي مباشرةً: وجهاً من الصخر، قضباناً في العينين، كمّامةً على الفم، ومعدناً في القلب. إن هذا الوجه هو من قادني لأن ألفظ أول كلمة نطقت بها: كلمة "لا".

أموِّه كل شيء وأمشي على الجمر فلا أترك أي شيء يظهر مني. تركتهم يعتقدون أنني فتاة يستعملونها ويتركونها. تركتهم يعتقدون أنني لست سوى جسد، ذلك الجسد الذي يجعلهم يرتجفون عندما يجرِّدونه من ثيابه.

جسد ضعيف هزيل هشّ، جسد يحبونه ويحطمونه، هذا ما كانوا يجتهدون لأن يفعلوه.

كنا نلهو، أنا و "سافيتا"، فنتصور أننا لسنا نحن. نتصور كما لو أننا قد ولدنا في المكان الصحيح، في عائلات لا يكون الإحباط فيها مرسوماً على تجاعيد الأيدي والرُكَبِ المنثنية. سنصبح طبيبتين أو محاميتين، ونعتني وندافع عن الضعفاء والفقراء. لن نترك أحداً في وحدته. كنا نحلم هكذا بهذه الأحلام البلهاء. ولكن عندما تصبح هاتان الفتاتان طبيبتين أتنسيان ماضيهما؟ أتفتحان الأبواب التي تمترستا خلفها؟

كانت "سافيتا" تدغدغ أصابع قدميَّ وكنت ألعق أخمص قدميها. لدينا نفس البشرة الناعمة التي تتبخر اليد عليها. والجزء

الأكثر عذوبة هو في تجويف الظهر وداخل الحوض. كان الزمن يتوقف عندما كنا نداعب هذه الأماكن. ألقيت برأسي على بطنها وأصغيت لغناء أعضائها. زمجرةُ شيء ما؟ جوعٌ؟ رغبةٌ؟ لا أدري. أو أن هذا هو صوت أمعائها التي تعمل عملها بكل بساطة؟ لم نكن بحاجة لأن نتحدث. كنا نسمع صمتنا.

سافيتا:

صمت "حواء" يهدر في أعماق بركانها. كنت أتألم لأنني أراها هشةً جداً بينما كانت تظن أنها قويةٌ جداً. عندما تكون جديةً يبدو وجهها مثل وجه طفل مندهش يحلم وعيناه تشعان بالأضواء. ضحكتها نادرة لكنها كالإعصار. إن الاقتراب من "حواء" يفضي إلى الضياع فيها.

قبل أن أعرفها كنت أرى الأشياء من بعيد فلم يكن يهزني أي شيء.

كان عليَّ أن أرحل في ذلك اليوم. كان عليَّ أن آخذ حقيبة صغيرة وأذهب إلى الأمام مباشرةً فلا ألتفت خلفي. لقد طفح الكيل بي من رؤية دموع والديَّ. فمسؤولية خروجنا مما نحن فيه ومساعدة أختي الصغيرة وتقديم القدوة الحسنة لها، كل ذلك كان يثقل كاهلي. كنا كالضائعين في "ترومارون"، كاللاجئين وسط اللاجئين. فأن نعيش هَهُنا ونزعم أننا نعيش في مكان آخر شيءٌ مختلفٌ، ورفضٌ واضح لكل ما يجعلنا نشبه الآخرين. كأننا على خلاف مع أنفسنا.

قررت أن أهجر "سافيتا"، تلك الفتاة الطيبة، نهائياً. لم أكن أعلم إلى أين أذهب. لكن ما كنت أود أن أهرب منه ليس "ترومارون"، بل عائلتي. "ترومارون" كانت مكاني وعنائي ومرساي.

لا أعرف مكاناً آخر. فقد ترعرعت هَهُنا. لكنني كنت أرى في عيون والديَّ "سافيتا" أخرى، فتاة لطيفة مجدة ناجحة. كنت ملزمة بأن أشبه هذه الصورة. لم أعد أستطيع. فهذه الصورة ليست أنا.

وبعد ذلك، وقعتُ في المدرسة على "حواء" الغريقة، على وجهها الغارق، ليس بالدموع، بل بظل الشجرة التي كانت تجلس تحتها. رأيت الأسوار التي كانت تحيط بها من كل جانب. رأيت نظرات الطلاب الآخرين الهاربة والمخادعة. رأيت عزلتها الكبيرة التي لا يميزها شيء عن الموت.

والأمر المرعب أنه تكوَّن لديَّ انطباع بأنها أنا.

استسلمتُ حينذاك. كان حزنها يسمِّرني في مكاني. كانت الحياة تهرب من الباب المفتوح في حضنها. وكان لا بد لي من أن أعزِّيها، وأضمَّها إليَّ مثلما تفعل الأم أو الحبيب، وأنسيها سبب ارتجافها، ولو لفترة قصيرة.

صاد:

أعجوبة أيامي. أشجار العندم الهندي مزهرة. لقد تفتحت آلاف الشفاه الحمراء معاً بعد أن استمدت غذاءها من الشجرة. والثمار تغطي الأشجار. هناك انفجارٌ فاحش في الألوان كما لو أن مصراعَ نافذةٍ قد فُتِحَ فبان في الداخل جسدٌ من النور العاري.

أينما توجهتَ تصدم الألوان ناظريك. يترنح القلب. حتى هنا، حتى هنا في مدينة الإسمنت، أقبل الصيف. ينقلب الدغل إلى اللون الأزرق البترولي. ويخضرُّ العشب لفترة وجيزة قبل أن يصفرَّ من جديد. تجتهد النسوة كي يعرضن أصص الأزهار على شرفاتهن. يغنِّين بعد أن تحررن من ثقل بطونهن. وفي الليل تمتزج رائحة الفواكه برائحة المزابل. ولفترة وجيزة تنتصر رائحة الفواكه.

يضنينا الصيف في بداياته قبل أن تجدد الحرارة صراخ المزابل، وقبل أن تحرِّك ظلالنا من جديد، وتهز مخلَّفاتنا النائمة.

أتذكرها، ونافذتي مفتوحة على كل ما يمكن أن يثير الليل. جرس عينيها، جسدها الذي يناقض نفسه ويغذي الخيال. نوع من الجسد يمكن له أن يغيب بكامله داخل صاحبته. نوع من الجسد يمكن طيه في جميع الوضعيات الممكنة لبلوغ زواياه العصية. والذي يشكل متاهةً من أصابع القدمين حتى رؤوس الشعر. لأصابع قدميها نكهةُ التفاح الصيني. لشعرها عطرُ الليل

والطحالب. ولهنها رائحةُ الزينب والياسمين وسخونةُ الفاكهة شبه المتعفنة.

ها أنا ذا أسافر. لا أكف عن السفر. أتصورها مع الآخرين. مع الآخرين جميعاً. يحرضني ذلك بصورة أكبر. أغار، ولكنني أعلم في الوقت نفسه أنني الوحيد الذي يحبها. إنها تنتظرني. أعلم ذلك. وأحس به.

أنا شاب: خذوا يدي.

نعم! لقد قال الشاعر ذلك، وهو في سن السابعة عشرة، من فرط الأمل. من فرط الثقة. من فرط الوعود. كان يملك الكتابة. ثم هجر هذه الموهبة الثقيلة ذات يوم. أنا أريد الاثنتين: "حواء" والكتابة. لا واحدة دون الأخرى. دونهما أنا لا شيء. إنهما الثمار التي تملؤني، البذور التي تلد بذوراً أخرى وتضاعف صوتي مثل شجرة التين الهندي التي تلتهم الفضاء بلا انقطاع.

أعلم أنني لا أستطيع الإبداع الآن. فأنا حالياً لا أقوم سوى بالتقليد. صوتي ليس صوتي. وهذه اللغة ليست لغتي. حتى أنني لا أعلم لمن أتكلم.

لكن هذه الغرفة انتهت بأن أصبحت شيئاً حقيقياً. كنت أعيد قراءة الجنون على الجدران، الجنون المكتوب بالحبر الأسود والأبيض، وأقول لنفسي إنني في طور الإبداع حتى لو استخدمت كلمات الآخرين. كنت طفلاً يلثغ بالكلمات. أصبحت الآن رجلاً يروّضها. ومما لاشك فيه أنهم لن يفهموا شيئاً في اليوم الذي يفتحون فيه الباب، ولن يعلموا ما وراء ضربات الريشة. لكنَّ ما كان

يعزيني أنني وضعت كل شيء هناك. لقد قمت بالفعل. لا أدري ما قيمة ذلك لكنني فعلت شيئاً ما. لن أنتظر ليزداد شحوبي على هذا النحو من يوم لآخر حتى أُوَارَى الثرى. بل أنكتب بدلاً من أن أمَّحي. لقد صنعت جسراً مع مراهقٍ حانقٍ أيضاً ولو كان لا يعرفني أبداً. قال لي:

بكت النجمة ورداً في قلب أصابع قدميك، واللا نهائي الملفوف الأبيض من عنقك إلى حقوك، والرجل ينزف الأسْوَدَ على حضنك السيِّد.

أنا شابٌ: خذوا يدي.

أحبّ فتاةً وطِئوا جسدها. ولكنني حين أتجسد فيها، سأمسح كل علاماتهم: ستصبح جديدة.

أنا شاب: أنا عاشق.

هي الشمس التي دخلت في جسدي. هي إلحاح ما أكتبه. هي صورة "حواء" على أصداء غرفتي. هي العبارات التي ترسمها والتي تعرّيها. أنا عاشق.

أعتقد بالممكنات. نعم. حتى هنا أعتقد بالممكنات. حتى ونحن ننحدر في منعطفاتنا الخاصة. كانت كلمةٌ قد رسمتها لي في ذلك اليوم الذي نزلنا فيه من "لا رين دو لا بيه" على الدراجة. في ذلك اليوم وفي اللحظة التي قالت لي فيها إنها لن تقول أبداً أحبك، رأيت الكلمة التي كانت تصفها في الأرجاء، وهي كلمة مليئة بالأصداء وغريبة في آن واحد: "السحر". فكرت أنه لو أصبح هذا السحر جزءاً من ممكناتي لاستطعت القيام بكل شيء.

تنظر مدينة "بور لوي" إليَّ بعين أخرى. "بور لوي" السوداء الخسيسة، "بور لوي" المشوَّهة بالأشكال المزرية، "بور لوي" التي لا يمكن ولوجها في مدِّها البشري، أظنها تنظر إليَّ شزراً. كما لو أن حماماتها السوداء التي تملأ السطوح قد قبلت أن تفك رموز مزاجها. كانت المدينة تقول لي: طالما أنك تجد لحظاتٍ مثل هذه اللحظات، ووجهاً مثل وجهها، فإن عليك أن تحبني لهذا السبب حصراً.

أعلم أنني مجرد مقلد. ولكن قطرةً زرقاء دخلت فيَّ. وها أنا ذا أحولها لحبرٍ أسودَ لمراهقٍ يمزِّقُ الجدران. هذه القصة التي تقرؤونها على الجدران، لن تغيب كلماتها إلا عندما تزول الأبنية التي تضربها الرطوبة والأعاصير.

أحياناً، عندما تهب الريح من جبل "سينيو"، وعندما أرى النيران الملتهبة على سفوحه، نيران أشواكه، نيران مخلّفاته، أقول في نفسي إن هناك جمالاً هَهُنا أيضاً، فيفرقع شيءٌ ما، وتشتعل النار بأشواكي.

نسيت من أنا ومن أين أنا. لقد محى نسيم الجبل اسم "ترومارون" من على شفاهي ومن ذاكرتي.

لدي الرغبة في الرحيل ولدي الرغبة في البقاء. وأنا حائر ما بين الرغبتين. أما جسدي فهو لا يكف عن التجديف في مستنقعنا الحلمي حسب رغبة "حواء".

كليليو:

يفوح المصنع برائحة شحم المحرك والبقايا المتعفنة والأحذية الإسفنجية المتروكة والأجساد المبددة. أحياناً، آتي هَهُنا وحدي، فقط لأرى كيف تكذب الحياة على الفقراء.

هذا صحي تماماً.

لقد اعتقدتْ أمي أن كل شيء قد تبدَّلَ عندما وجدتْ عملاً هنا. عندما قبضتْ أول أجر لها اشترت لي حذاء "نايك" لأنها كانت تعتقد أنه سيفرحني. ولم تلحظ قط أنه كان لدي الكثير من أحذية "نايك"، ذلك أنه كانت لنا طرقنا الخاصة للحصول على هذه الأشياء التافهة.

لم أكن بحاجة لأي شيء.

كنت بحاجة لدليل.

كنت بحاجة لعقل.

ثم راحت تتغير من أسبوع لآخر. لقد نما المصنع وانغرس بداخل حيواتنا. أمي تشتري لي حالياً الكنزات المضروبة. لو رأيت الآن كنزة من طراز "رالف لورين" لها كم أقصر من الكم الآخر، لمزقتها إرباً إرباً وألزمت هذا السيد الذي يعتبرنا كائنات عرجاء بأن يبتلعها. ولكننا نحن، نحن لسنا أكماماً. نحن أذرع وسيقان وعيون غير متجانسة. نحن خربشات الإنسانية.

ازداد نحول أمي وشحوبها. لم تعد ترى الشمس. عندما كانت تعود إلى البيت بعد انتهاء النهار كانت تبدو مثل نسخة مصورة عن ذاتها. وكأن شيئاً ما قد مرَّر ممحاةً على ملامحها.

كان أبي ينتظرها جالساً على المقعد. كان يمضي نهاره ينتظرها مثل عجوز أحمق بعينيه الطفليتين الزائغتين، وكل ما كان يقوله لها عندما تصل: "هل جلبتِ شيئاً نأكله"؟ لم يكن ليقول لها أي شيء آخر. كانت تتملكني الرغبة في خنقه عندما كنت أسمعه يقول ذلك. كنت أرغب في أن أقول له: "دعها تجلس، تنزع حذاءها، تشرب كأساً من الماء واذهب لإعداد طعامك بنفسك أيها القذر". أو أقول له: "لقد أمضيت نهارك أمام النافذة ترقب ظلها".

أصبحت عيناها غائرتين في تجاويف شبيهة بكهف الأب "لافال"، إذ يتوجب عليك أن تنزل إلى أعماقها كي تراهما. بدأ شعرها يتساقط. أصبحت الشعرات كالخيوط. أعتقد أنها لم تكن تأكل ما يكفيها. وأصبحت يداها مليئتين بالحفر مثل سطح القمر.

ثم استقدموا عاملات صينيات يعملن بصورة جيدة وسريعة دون أي تذمر. أو ربما أنهن يشتكين في لغتهن فلا يفهمهن أحد. قيل للموريسيات إن عليهن أن يعملن مثلهن إذا أردن المحافظة على عملهن. طردت بعض العاملات، أما أمي فكانت تتشبث بعملها. لم تكن أمي لتقبل بالهزيمة بل تقاتل مثلي. ليست مثلي بالضبط

بل مثلي تقريباً. بيد أنها طردت هي أيضاً في نهاية المطاف، عندما أغلق المصنع لأن كلفة صناعة القمصان والكنزات كانت مرتفعة هنا.

قال أبي إن بلدنا بين العملاقين الأمريكي والصيني نملةٌ يدوسون فوقها ولا يرونها. سألني: أتفكر أنت مرتين قبل أن تدوس نملة؟ حسناً، الأمر كذلك بالنسبة إليهما. ليس هذا هو الظلم بل هو منطق الاقتصاد.

أحياناً يكون أبي معتوهاً أقلَّ مما يبدو عليه.

وددت لو أن "كارلو" يرسل لنا قليلاً من النقود، لو يساعدنا حتى لو كان لا يريد أن يعود. لكنه لم يرسل أي شيء. بل يتصل بأمي فيضيء وجهها كما لو كانت قد زيَّنته في عيد الميلاد. كان يغيظني وجه أمي حين يضيء من أجل "كارلو" المزيف الذي تصدق كل أكاذيبه. لم أسمع أبداً أن أشخاصاً من "ترومارون" يملكون بيوتاً من عشر غرف في فرنسا، ويظلون يعدون أمهاتهم طوال عشر سنوات بأنهم سيأخذونهن لزيارتهم دون أن يحققوا ذلك.

لقد شطبت على "كارلو". أقصد "كارلو" المزيف. فالحقيقي موجود هَهُنا قربي. نجلس على السطح ونثرثر، نروي القصص كالسابق، فهو أخي الأكبر الجميل كالملاك، وعندما كان موجوداً هنا لم أكن لأخاف من أي شيء.

كان الجيتار معي في ذلك المساء. تمددتُ مع آخر أشعة الشمس التي تلفح رأسي ووضعتُ الجيتار على بطني. رحت أعزف بتكاسل

وأغني أغنيات ألّفتها بنفسي، لكنني لا أغنيها للآخرين. لو كان "كارلو" واقفاً هنا لأدركها.

لم أكن أصدق أي شيء. لكنني كنت أعاني على الرغم من ذلك.

سافيتا:

قالت لي بعد الدوام: سوف أذهب إلى هناك. حاولت إقناعها بالبقاء لكنها رفضت في تلك اللحظة كالعادة: كنت أقوم بخطوة زائدة.

"حواء" التي لا تلين. هكذا أدعوك.

كنت أرافقكِ غالباً. كنت أوصلك إلى بيتك غالباً. كأنني أكون موجودة في اللحظة المناسبة كي ألتقطك. ذلك أنني أسمعك. أنت لا تنادينني مطلقاً. لكنني أسمعك على الرغم من ذلك.

لكنني حزينة لأنني أراكِ تهربين هكذا. تستطيعين أن تقولي "لا". لماذا تستسلمين لهم؟ لماذا ترتبطين بهم دوماً؟ لا أفهم.

أريد أن أحميك. أريد أن أمنعك من أن تضحي بنفسك. أريد أن أكون تلك التي تنقذك من نفسك.

أحياناً يكون صوتك محطماً. أحياناً تكون عيناي محطمتين من رؤيتك. لا أحد بريء وأنا غاضبة من العالم.

أضحي بحياتي من أجلكِ.

يبدو هذا في غاية البساطة. أنت فقط تعرفين ما أعني. وتعرفين ما في هذه العبارة من معجزة وعناء.

أنظر نحوكِ وأنا جالسة على الشرفة. هنا لا شيء لي سواكِ. أسمع نفاذ صبر أبي الذي ينتظر أن ينفتح صندوق المجوهرات في وجهه.

أسمع ارتياب أمي التي تراه يحلم وتحتقره. أحاول أن أصغي لنفسي أنا، لكني لا أسمع أي شيء سوى الهواء الذي يدخل ويخرج من رئتيَّ. مجرد آلية الجسد وانعدام الحياة.

لا تزال حقيبتي الصغيرة على الرف مليئةً دوماً ومتوقعةً دوماً أن أقرر الرحيل.

رائحة الطعام جعلتني أفكر بأنك قد تكونين جائعة دون أن تشعري، أنت التي لا تقضمين سوى الفواكه الحامضة.

سألتني ذات يوم: ألا تجدين أنني أشبه الفأر؟

أقبِّلُ وجهك الفأري. أنت جمال العالم وضياؤه.

حواء:

ينبجس الماء. يهرب. يتبدد. ينقل معه آلاف الذكريات وآلاف النفايات. ورق. علب. أوانٍ مكسورة. رائحة دار العجزة. تسحب المياه كل حياة الحي معها في النهر فينتفخ ويفيض عن ضفافه.

أنتظر حتى يهدأ النهر كي أعود إلى المنزل. لا أريد رؤية أحد. فليأتِ الليل ويطمس كل شيء بما في ذلك مقابلة الناس وشكل الأشياء.

في يوم آخر، كنت أنظر إلى المدينة من هذا المكتب الذي دعيت إليه فرأيتها كما كانت في ذلك اليوم عندما كنت مع "صاد" في صرح "لارين دو لابيه". شاحبة ونائمة. كان كل شيء يبدو من الأعلى منهكاً. لقد سُنَّتْ المباضعُ ورُتِقَتْ الجراح. للمكتب المكيَّف المفروش بالموكيت رائحة الجلد الجديد. والمقاعد تجعلك ترغب في أن تسترخي فيها. هناك لوحة رسمها "شازال" في ظل زجاج النافذة. كانت اللوحة تغمزني. كنت أعرفها فقد حدثنا عنها أحد المدرسين. رأيت في الطائر السمين والزهرة الضاحكة المرسومين فيها أحلام طفولتي التي هجرتها منذ فترة طويلة.

كان بإمكاني أن أنام بسلام هنا. في هذه الفقاعة التي تناقض الواقع. كان بإمكاني أن أنام في روعة الجلد، وصفير المكيِّف، والنور الذي لا ظلال له. كان بإمكاني أن أنام في هذا المكان

الأبيض بعيداً عن الضجيج والشمس الحارقة. أشعر أنني على ما يرام لا في أفياء النهار بل في أفياء الحواس. لكنني أعلم أنني لو نمت لاستيقظت متجمدة القلب متيبسة الجسد من الموت. ربما أن الرجل الذي يشرب الويسكي، الكأس تلو الآخر، في زاوية المكتب الأخرى يسعى لأن يطرد شبح الموت عنه بواسطتي. يحتاج لجسدٍ آخر كي يزيل الجليد عن جسده. يحتاج لحياة أخرى كي يظن بأنه لا يزال يحيا. إنني أفهمه: لقد ناضل طويلاً إلى أن وصل إلى ما وصل إليه، وحين وصل لم يعد يعرف ماذا يريد. لقد بنى لنفسه حياةً خاصةً لكنه لم يجد مكاناً له فيها.

إنه ينظر إلى الفتاة، بعيني طفل، واقفاً أمام النافذة. أما أنا فلست على عجلة من أمري. أنتظر. أنظر. لو يتركني هنا لبقيت أنظر طوال الليل. أنظر إلى المدينة والظلام والضياع.

رغبت في أن أقول له: إن ما تبحث عنه ليس موجوداً هنا. لكني سمعته يجيبني: وليس ما تبحثين عنه موجوداً هنا أيضاً.

أنت هارئة. شعرك ملطّخ بالبقع السوداء. وجهك رصين. لقد حدّثوا "صاد" عنكِ. قالوا له إنكِ لستِ كالأخريات. انتبه إلى أن هذا صحيح فعلاً. قالوا له إنها تفعل كل شيء. ما زال لا يعلم إن كان هذا صحيحاً. أنت لا تطلبين شيئاً. أنت زاهدة وجذابة، هذا ما يعتقده عنكِ. ولكنهم حدّثوه أيضاً عما فعلوه بكِ. مهرجانات كنت فيها وحيدة وهم عديدون. كل صباح كانوا يتركونك شبه ميتة بالقرب من حارتك.

إنه لا يشعر بأي ألم في تخيل ذلك. عظامك طرية.

ماذا تريدين؟ إلامَ تسعين؟

وفي اللحظة نفسها، تنقلبين وينهض ليفك حزام بنطاله.

حواء:

أصبح النهر هادئاً. أصبحت أنا هادئة أيضاً. ذات يوم رماني هَهُنا رجالٌ كانوا قد أصبحوا مجانين بسبب الخمرة وجسدي. لم يأخذوني لمكتب مكيَّف بل إلى جزيرة على حواف الجزيرة، جزيرة للريح والطيور والأشواك والأفاعي.

شربوا فاختلَّ توازنهم. راحوا يدورون حولي راقصين، ثم خلعوا ملابسهم فبدوا مثل طيور ثقيلة حمقاء تقف على قوائمها الهزيلة. عندما ارتموا فوقي أدركت أنهم يرونني شيئاً غريباً عنهم. حطّموا ما كان غريباً عنا. ثم حملوه إلى زورق كما لو كان كيساً من الرمل يغسله الماء.

عندما استيقظ كيس الرمل نظر إلى السماء المليئة بالنجوم وقال في نفسه: هذه هي المرة الأخيرة.

لكن الرجال كانوا يسعون إليَّ والحياة ظلت تأخذني وأنا لا أبالي بنفسي مما جعلني أستمر ولا أنثني.

أسعى لأعلم أين يكمن كنه الحياة. ما لونه. وماذا يشبه جسر اللا عودة الذي سيقول لي أخيراً من أنا.

استمررت في التقدم. الخطوة تلو الأخرى؛ لكنها نفس الخطوة أيضاً حتى النهاية. خطوة في نفس المكان دون أي هدف آخر غير أن أكون نقيض نفسي.

هذه الخطوة صادفت خطوة فتيات أخريات، نساء أخريات، أولاد آخرين، رجال آخرين. كان البعض يطأطئون رؤوسهم ويسيرون إلى الأمام. والبعض الآخر يتراجعون. كانوا جميعاً يبتعدون عني ويتركونني وحيدةً.

لقد انسحق جسدي بفعل الأمواج المعادية وصفير الريح. فهي تركض كي تهرب مبتلعةً مرارة القدر. أما أنا فأعوم فوقها.

من النافذة المفتوحة لا يجيبني أحد. وددت لو أفهم ما يمسكني وما يوجهني. وددت لو أفهم أصلَ هذا الرفض. وما الذي جعل الرفض يتجذر بي.

قالت لي مديرة المدرسة بالفرنسية: ينبغي عليك أن تتنحي. ثم قالت العبارة نفسها بالإنجليزية ثم باللغة الهجينة الدارجة. قالت لي العبارة نفسها باللغات الثلاث. أي أنني المسؤولة. كان يتوجب علي أن أنسى إلى أين أعود في المساء، وأن الأوغاد يتبعون الطريق نفسها، وأن هذه الطريق مليئة بالسيقان الجريحة. بفتات الأجساد والأذرع والسيقان والعيون. أناس تم اختزالهم إلى أصغر شكل لا مرئي. على طريقي كانت تلاحقني نظرات مستجوبة وضبابية تبدو وكأنها تسألني: من أنت؟ أنت التي تسيرين على غير هدى؟

سوف لن تفهمني هؤلاء النسوة اللواتي استقلن من الحياة فانسبنَ وغِبنَ في ثنايا المدينة.

الأوساخ ترش الطرقات مثل الخردق. والأخاديد تبدو كالحفر التي تسببها قذائف الهاون. في التلفاز يتم الحديث عن الحرب. بيد أنني هَهُنا لدي انطباع بأننا نعيش في حالة حصار. نعم نحن نخوض حرباً

ضروساً ضد أنفسنا وضد هذه الأجهزة التي تنمو كالطفيليات بجانبنا.

لكنَّ هذا ليس في مدينتنا فحسب. بل إن العالم يعلن الحرب على كل من يحيد عن الطريق، وكل من لا يمشي مع المنتصر. إن إيقاعاتها البعيدة ليست في صالحنا. فأن يكون المرء أعمى أفضل له من أن يرى غضبه بأم عينيه. كل امرئ يتسلّح. كل امرئ ولد عارياً. ثم يصنع كل امرئ سلاحه من الشوك، ومخالبَه من العلّيق. بيد أن إرث الجنس الناعم مختلف عن إرث الجنس الخشن. فنحن لم نولد للمهمة ذاتها.

ماذا يعطي الرجال مقابل الجسد؟ جسدهم غير قابل للعطاء: إنه يأخذ ولا يعطي. فهم يحافظون على أنفسهم جيداً. إنهم حماة ظلالهم. ونحن فراشات طائرة حتى في أعلى درجات تحدّينا، حتى في أقوى درجات دفاعنا. نحن أجساد طائرة.

توالت الأيام. حاولت "سافيتا" أن تمسكني، أن تتأبط ذراعي، أن تنقذني من نفسي، لكن الوقت متأخر جداً. أعلم أنها لن تتبعني هناك حيث أمشي.

عندما كنت أقول لها إنني سأبقى في المدرسة بعد الدوام، كانت تنظر إليَّ ولا تجيبني. كانت تستسلم مثقلةً بكل ما لم تستطع أن تقوله لي.

قالت لي ذات يوم سأنتظرك.

ومنذ ذلك الوقت وهي تنتظرني كل مرة مثلما ستنتظرني في ذلك المساء.

صاد:

تندسان بين الجدران مثل شبحين قررا أن يهزأا بنا. ترقصان رقصتهما على مرأى من الجميع وهما تعتقدان أن أحداً لن يراهما. كان سيبدو عليهما مظهر البراءة لو لم تكن حركاتهما تتمتع بهذا البطء الذي ينم عن الليل بدلاً من أن ينم عن النهار الساطع. سأراهما آلهتين لو جعلا مني إلهما. ترتديان غلالة بيضاء تكاد لا تستر صدريهما ووركيهما الأسمرين.

لكنهما مثل اليدين في الجسد الواحد. ليستا بحاجة ليد ثالثة. تستطيعان أن تفعلا ما تريدان، وفي الوقت الذي تريدان. لا حاجة للشبان في ابتسامتهما. لقد أغمضت كل واحدة منهما عينيها على الأخرى بحيث لم تعد ترانا.

كان ذلك يغيظ الشلة. كنت أحس أن شيئاً ما قد تغير بداخلهم، هم الذين تساهلوا حتى ذلك الحين مع مجون "حواء" وكبرياء "سافيتا" الرشيقة، وحتى مع ما قرّبهما الواحدة من الأخرى في بداية الأمر. لكنهم لم يعودوا يرغبون في رؤية هذين الجسدين الأنثويين يتبختران أمامهم دون أن يحصلوا على شيء منهما. تستطيع "حواء" أن تمضي من رجل لآخر، لكنها عندما تكون مع "سافيتا" كأنها تلجأ إليها. كأنهما كانتا تقولان: لسنا لكم. ولن نكون أبداً لكم. كانتا تنسابان على رؤوس

الأصابع وتتمايلان. كان الشباب يعبون سجائرهم بقوة مما يشعل ضوءاً ينعكس شؤماً في عيونهم. همس "كيني" قائلاً: هاتان الفتاتان، لقد آن الآوان لتلقينهما درساً لا ينسى. ما لعبتهما؟ من المؤكد أنها لعبة فتيات، لكنهما لا تعلمان ما ينتظرهما هاتين القوداتين.

هكذا كانوا يتحدثون.

بذلت كل ما بوسعي كي أهدئهم وأغير أفكارهم. استخدمت كل خيالي كي أجد ما يلهيهم. قلت إلى "كليليو": آه "كليليو"، أتذكر السيارة التي أخذتَ رقمها، لدي عنوان صاحبتها، ذلك أن عمي يعمل في سجلات السيارات. لكنَّ "كليليو" كان في عالمه الخاص، فقد كان يقضم أظافره حتى ينكشف اللحم الحي من تحتها، وبعد ذلك يقضم اللحم، لم يكن لديه الوقت الكافي ليسمعني. والآخرون بالمقابل هم مع الفكرة. كانوا يقولون: تعالوا ننفّس دواليب الشبح ذات الدفع الرباعي، تعالوا نخيف المرأة الصغيرة فنكسر نوافذها.

لا أحد لديه الرغبة في القيام بذلك، ولكن عندما تنتمي إلى شلة يجب أن تنسى أنك شخص له موقفه الخاص، يجب أن تكون جزءاً من هذا الجسم الحار المتحرك القادر الذي لا شيء يستطيع أن يوقفه. عندما تنتمي إلى شلة يجب أن تذهب حتى النهاية.

"كليليو" لا يريد أن يأتي.

اتركه، قال "كيني"، فهو يغط في هذيانه.

قلت لهم: لا نستطيع أن نتركه لوحده.

اتركوني لوحدي، قال "كليليو" الذي كان ينزع اللحم الميت من كعبيه.

تركته لأنني أريد أن أبعدهم عن "سافيتا" و "حواء". أريد أن أحوِّل انتباههم عنهما.

غادرنا المدينة في ظل تذمر "كليليو".

حواء:

غادرتني "سافيتا" للتو أمام عمارتي. لم أدخل مباشرة كالعادة. في ذلك المساء كان الأمر يثقل كاهلي أكثر من أي وقت مضى. فقد استوقفني المدرس. وبطريقته المنحطة بدا كأنه يعشقني فعلاً بقدر ما يستطيع رجل أن يعشق. أمضى وقتاً طويلاً ينظر إليَّ ويتأوَّه، وفجأةً تخلَّص من العنف المكتوم الذي لم يغضبني.

في ذلك المساء حصل شيء غريب لم يحصل لي من قبل.

في اللحظة التي انتبه فيها، بدا مضطرباً كأنه على وشك البكاء. لا أعتقد أنه كان يرغب في جسدي فحسب مثل الآخرين. أعتقد أنه كان يرغب بي أنا، بالأنا الذي يكمن في أعماقي، في الجزء الغض المغطى بقشرة البرودة. تكوَّن لدي انطباع أنه كان يولج يديه في جسدي من أجل أن يبحث عن هذا الجزء. من أجل أن يبحث عني هناك حيث أشعر بألم شديد لو مُسِسْتُ. ولكن ربما أنه كالآخرين يريد أن يراني أتألم فحسب. ربما أنه مجرد رجل مثل الآخرين جميعاً.

من حسن الحظ أن "سافيتا" كانت تنتظرني أمام المدرسة مثلما تفعل في كل مرة. عندما رأيتها نسيت ما حصل. عندما رأيتها نظرتُ إلى اللحظات القادمة وأغلقتُ الباب على كل ما كان يفصمني.

أفكر في "سافيتا" التي أنقذتني من نفسي في ذلك المساء.

سافيتا:

شعرت بالخوف في ذلك المساء. عدت ماشيةً إلى جانبها، ولكن بعدما رأيت، لم يكن بإمكاني التوقف عن الرجفان. وعلى الرغم من ذلك بدت هي هادئة ونائية بنفسها عن كل شيء حتى لو كان فخذاها محمرَّين.

شعرت بنفسي ضعيفةً ودائخةً. كان السير يؤلمني. كان الهواء موحلاً، والحرارة مرتفعةً فأصبح جسدي دبقاً. لم أعد أنا من يسندها بل هي من تقودني. عاودت التفكير بما رأيت في قاعة الصف. لم أكن أرغب في رؤية ذلك. ولكن بما أنها قد تأخرت في الخروج اعتقدت أنها كانت قد ذهبت. صعدتُ. لم يكن الباب مغلقاً تماماً.

أعتقد أنه لاحظني أو أنه أحس بي. هي لا. هي كانت منسية. ابتعدتُ. ونزلتُ لأنتظرها. عندما جاءت عرفتُ من عينيها أنها لم ترني. أخذتْ بذراعي كالعادة. رفعتُ عيني فرأيت أحدهم ينظر إلينا من الأعلى. اجتاحتني هذه النظرة. فشعرتُ بلدغتها.

أسرعتُ، لكن خطاي كانت ثقيلة. سمعتْ لهاثي وقالت لي ما بك؟ لكنها كانت كالعادة في ذلك المساء نصف حاضرة. كان النصف الثاني في مكان آخر. كان النصف الثاني يحاول أن يلتئم ويذوب.

يجب أن أكلمها. ينبغي علينا أن نرحل. ينبغي علينا أن نهرب. أصبح أولاد المدينة رجالاً. أصبحوا يحملون ضغينة الرجال. سوف

ينقضُّون علينا عما قريب. سوف لن يتحملوا رؤيتنا الاثنتين معاً. هي لا تعيرهم اهتماماً. أما أنا فبلى. أرى الغضب يكبر. أرى الحرارة التي تغلي في النفوس. ينبغي علينا الرحيل.

ولكن كيف يهرب المرء عندما يشعر بنفسه ثقيلاً؟ إن السير يؤلمني. إن التنفس يؤلمني. والأرض تتشبث بأقدامي. الحمم تغطي قدميَّ. بعد قليل لن أستطيع أن أتحرك وسيمزقني البركان إرباً إربا.

عديني أن تلمِّي أشلائي يا "حواء"، قلت لها.

ماذا تقولين؟ سألتني.

لا أدري.

ضمتني بين ذراعيها.

قالت لي: يا حبيبتي "سافيتا"، لن ألمَّ أشلاءك فحسب بل سألتهمها، وبذلك تصبحين بداخلي، وإلى الأبد.

حاولت أن أمزح معها فقلت لها: كنتُ واثقةً دائماً من أنك من آكلي لحم البشر!

عضَّت كتفي بهدوء. وددتُ لو تترك أثر أسنانها في لحمي. لكان ذلك الذكرى الوحيدة منها.

في لحظة الافتراق انتبهت إلى أنني أبكي دون أن أعرف السبب. ليست هنالك مسافة كبيرة بين شقتينا. تركتها أمام عمارتها. أما أنا فليس عليَّ سوى أن أجتاز موضع القمامة حتى أصبح في بيتي. ولكن هذه الطريق القصيرة بدت في الظلام طويلة جداً. طويلة بطول الحياة.

الجزء الثاني

صاد:

البارحة كانت ليلة عادية. البارحة كان عالم آخر. ثم رأينا ما رأينا في الصباح. لم يستطع أحد أن يفهم ما حصل. فحتى في "ترومارون" لم يحصل أمر كهذا في جميع الأحوال. كان الحي هادئاً مثلما لم يكن من قبل. الجميع متوارون. لم يجرؤ أحد على أن يقول أن هذا قد حصل أخيراً. لم نرد أن نصدق ذلك من تلقاء أنفسنا.

لقد تم العثور عليها في مكان الزبالة مغمورة في القمامة.

لم يسمع أحد أي شيء. وبالطبع فقد أشاح الجميع بوجوههم جانباً. فالتجاهل هو الملاذ الوحيد.

ونحن الشباب لم نقل أي شيء ولو كنا نعرف شيئاً ما. نحن لن نشي بأي شيء.

نعلم أن بعضنا يموِّهون أشكالهم المرعبة وراء مظاهرهم العادية. وأن مظهرهم العادي يخفي عيون قتلة. إن هذه الوحشية هي من إرث الطفولة، بيد أنها لا تظهر في البداية دائماً. أحياناً يكون القتلة هم الأكثر صمتاً والأكثر هدوءاً. تبدو أجفانهم ثقيلة فلا نلاحظ أن نظرتهم متشحة باللون الأحمر. هنالك شيء ضبابي يموِّه هدوءهم. بيد أن معظمهم صبيةٌ عاديون. كنا نلعب فنتظاهر بأننا مرعبون لكننا في حقيقة الأمر لم نكن لنقوم بأي شيء مرعب. وبعد وقت ما، نعود مواطنين عاديين بعد أن أصبحنا على ثقة بحريتنا وأنفسنا. لم نفهم أي شيء إذن.

ما الذي حصل؟ لم يكن أحد حاقداً على "سافيتا".

فكرتُ بآخر جملة كتبتها على الجدران مساء أمس: فمك الأحمر الذاكرة ينفتح ليستقبل دم الرجل السيد.

كنت أقلد "رامبو" كالعادة. لكن ذلك صحيح: إن الرجل سيد. ولن يكف عن أن يكون سيداً إلا عندما يغير العالم مداره.

عندما رأيت "حواء" ثانيةً، تقززتُ من منظر وجهها. ذلك أنها بدت فجأةً وكأنها قد ضاعت وتلاشت.

الآن أدركتُ لماذا لم تستطع أن تقول لرجل أحبك.

متعَبة منهَكة منفوشة الشعر. كانت تجلس قرب النهر. لم تكن تبكي. كانت متكوِّمة مثل بيضة. بلعتْ لحم المها. حاولت أن تبصقه لكنه التصق داخل فمها وأسفل حنجرتها. تحسُّ بالغثيان لكنها لا تستطيع أن تبصق أي شيء. ولا حتى بصقة خلاص. حتى أنني لم أجرؤ على أن ألمسها، إذ كانت قد ذهبت بعيداً.

أستطيع فقط أن أبقى جالساً قربها وأن أنظر إليها وهي ترتجف. كلما كان النهار يتقدم والرجفة لا تنقطع، كنت أراها تبتعد في الذكرى وتغيب في خسارتها. إنها ضائعة. لن تكون "حواء" ملكاً لي أبداً. ولن أكفَّ عن حبها. غير أن شيئاً ما قد مات بالنسبة لي أنا أيضاً. فأنا لم أفهم معنى الحزن قبل هذا النهار.

رأينا سيارات الشرطة قادمة من بعيد. هناك جلبة في المدينة. كأن الناس قد فضَّلوا الاختباء. غير أن حضور الشرطة قد غيَّر كل شيء.

أخذتُ يديها المغلقتين في قبضتي وفتحتُهما. كانت راحتها مرصَّعة بهلالات صغيرة حمراء كما لو كان القمر الجديد قد مرَّ

فوقها. وضعت فمي على الهلالات الحمراء فرفعتْ يديها. أرادت أن تؤذي نفسها. أرادت أن تصرخ. لكنها لم تستطع.

قلت لها: حدثيني.

أجابتني: رأيتها مساء أمس، بالضبط قبل... لم أعد إلى بيتي. ليتني تبعتها، ليتني استوقفتها قليلاً، ليتني كنت معها.

لكنني أتيت هَهُنا قرب النهر. ومن هنا لم أرَ أي شيء.

كنتُ آخِرَ. ليتني. لو كان عندي. كان عليَّ. لماذا. لو. لكن. بدلاً من. هي. وبعد ذلك.

ثم انتهت بأن أصبحت تدور حول نفسها كما تدور الآلة حول محورها. ضربت الأرض بقبضتيها المغلقتين. ضربت بقوة بحيث تصدَّعت التربة حول راحتيها. ثم نهضت وشرعت تضرب بأقدامها كل شيء حتى كادت أن تركلني أيضاً. نهضتُ وأمسكتُ بها. بعد لحظة هدأتْ، ولكن صوتها ظل واخزاً.

سألتني: من فعل ذلك؟

لا أدري. ليس لدي أيّ فكرة.

قالت: هذا غير صحيح. أنتم تنتشرون في كل مكان. تسمعون كل شيء. وتعرفون كل شيء. لا بد أن من فعل هذا واحد من الشلة. تعرفونه ولن تفصحوا عنه، لمجرد أنكم تريدون أن يحمي بعضكم بعضاً.

هذا ليس صحيحاً يا "حواء". أقسم لك بأننا لم نكن هنا مساء أمس.

أين كنتم إذن؟

في نزهة. لم نفعل شيئاً محدداً بل كنا نبحث فقط عن أناس نخيفهم.

قلّدتني بسخرية قوية: كنا نبحث فقط عن أناس نخيفهم. ألم تكونوا تبحثون عن فتاةٍ تقتلونها أيضاً؟

نظرت إلي وهي واقفة بكثير من الازدراء بحيث لم أعد أعلم أين أقف.

قالت لي: لقد كتبتَ عبارة "الرجل السيد". إنهم سادتك أيضاً. أنت لا تجرؤ على الوقوف بوجههم. ولن تجرؤ أبداً على التبليغ عنهم. أنت تحتاج لشلة تنتمي إليها بأي ثمنٍ كان. أنت جبان وغشّاش وكذّاب. إن هذا يثير الحزن حقاً.

رحلت دون أن تنتظر تفسيرات أخرى. لكنني لم أكذب. ربما أنني جبان، لكنني لست كذاباً. وهي لا تعلم بأنني كنت أحميها من الذئاب.

وأنا أيضاً رحت أدكّ الأرض، لكنَّ أحداً لم يرني. إن ما يؤرقني لا يعرفه أحد سواي.

حواء:

كان الجسد العاري ممدداً على الفراش كما لو كان جاهزاً للتشريح. لكنها لم تكن عملية تشريح.

عاريةً، ممدودةً على فراش في قاعة " علم الأحياء"، كنت أحاول أن أتصور نفسي محل "سافيتا" المعروضة أمام نظر الأطباء والشرطة، المنتظرة أن يكشفوا عن أسرارها. والمنتظرة أن تلطّخ الخزف الأبيض باللون الأحمر. لكن الجسد الميت لا يلطّخ شيئاً. فالدم الأحمر ينبجس من الجسد الحي فقط.

لقد كتب "صادق" على جدار قرص الدرج: تتفتح الذاكرة الحمراء لتستقبل دم الرجل السيد.

ما الذي استقبلته "سافيتا" من الرجل السيد؟ ضربات. طعنات. وربما أشياء أخرى.

وأنا لن أستقبل دماً، بل سأستقبل المني الذكري الذي يكتسح الأنثى ويغرقها، والذي ينثر فيها مليارات من نظرائه المحتمَلين.

ولكني لن أكون حاملةً لنظرائه. لن يكون جسدي مستعمرةً أبداً.

كان جسدي عارياً ممدداً على الطاولة.

جسد نحيف قابل لأن تحبه أو تمزقه على حد قولهم.

إنه الآن يحبني ويمزقني في الوقت نفسه. فهو يئن ويترنح تحت وطأة الرغبة. لم أره قطُّ محطّماً لهذه الدرجة. كان ظله على الجدار ضخماً. إنه

غول سيجهز عليَّ. لم يكن هذا الظل يشبه البشر في أي شيء. ظلٌ أحدبٌ متمايلٌ تصدر عنه نحنحاتٌ وحشرجاتٌ، حشرجاتُ معاناةٍ وحشية.

لماذا أتيت هذا المساء؟ لماذا أتيت بعد ما حصل لسافيتا؟ مكاني ليس هنا. بيد أنه ليس لي مكان. لا أستطيع أن أقيم العزاء لسافيتا لا في بيتي ولا في بيتها.

إذن سأقيمه هنا بكل قوة حقدي. أكره موتك يا "سافيتا". وأكره هذا الرجل الذي ينجو من نفسه عبري، دون أن يعبأ فيما إذا كنت حيةً أم ميتة.

وبعد ذلك، سأنهض عندما ينتهي من سيلان لعابه، وكي أحقق هزيمته سأجلس على الطاولة نفسها كي أكتب واجباتي في صمت القاعة، ورائحة الأجساد القريبة، وثيابي الممزقة، وشعري الرطب، وفمي الجاف، وجسدي المفرَّغ، وروحي المهترئة، وذكرياتي القذرة، وأيامي التي دفعت ثمنها، وعزتي المطعونة، وبكارتي المفضوضة، وحروف المعرفة ستعلق على الورق كالرصاص دون أن تقول لي أي شيء، دون أي تأثير، عارضةً أمامي عجزها ولا مبالاتها. ذلك أن "سافيتا" لن تنتظرني في الأسفل كالعادة كي تشدَّ خيطَ الحياة الدقيق في جسدي، ومن دون ذلك أنا بلا حياة، لا شيء يبقيني فوق الفراغ، لا شيء يمنعني من أن أستسلم للسقوط.

مثلها. لكنها لم تستسلم للسقوط. بل سقطت بفعل فاعل. فاعلٌ اعتقد أنها لا تساوي القمامة التي رُمِيَتْ فيها.

قال لي لحظة مغادرتي: وهذه الفتاة التي عثر عليها ميتة في "ترومارون"؟

انتظرت لحظة ثم أجبته: أعرفها.

رأيت السؤال الآخر الذي ارتسم على شفتيه دون أن يجرؤ على أن يلفظه. أجبته مع ذلك: نعم. وأنت أيضاً.

أعلم أنه سيبقى واقفاً في الظلمة على النافذة عندما أذهب، سيراني أغيب في باحة المدرسة. سيتساءل عما إذا كان سيراني غداً. أو إذا كان سيحصل لي ما حصل لها أنا أيضاً بينما أعود وحيدةً إلى منزلي.

كانت أضواء السيارات تذرع الطريق مع حركة المرور التي تفتقر للإحساس. وهو؟ أكان فاقد الإحساس تجاه ما حصل؟ أكان يداعبني كما لو كنت جسداً ميتاً على طاولة التشريح؟ ما الفرق يا ترى؟

لقد قام بتشريح جسدٍ بشري على فراش قاعة "علم الأحياء". هذا كل ما في الأمر.

كليليو:

المدينة تعج باللباس الموحد.

نحس بأننا على ما لا يرام حتى لو لم نقترف ذنباً. فاللباس الموحد لا يناسبنا.

لدي انطباع بأنهم ينظرون إليَّ نظرةً غريبةً. تنهمر الدموع من عيون أمي مثل صورةٍ للسيدة العذراء ما إن تراني. يبدو أبي وكأنه يجلس على الجمر. بيد أنني لم أفعل شيئاً. لست المسؤول عما حصل. إذا كنت أرغب في قتل الناس، فلن أقتل من لا يستطيعون الدفاع عن نفسهم بل أولئك الذين يدوسون على الآخرين.

السماء ثقيلة. الريح تجري منخفضة. شبان الشلة يهربون مني. لا أفهم السبب. لم أذهب معهم مساء البارحة، لكنَّ ذلك ليس سبباً كافياً ليقاطعوني.

جميعهم جبناء. حاولت أن أغني فخرج صوتي بصعوبة بسبب الضغينة التي أحس بها. أنا لا أغني كي أبعث السرور في نفسي بل كي أتحدث إلى "سافيتا". لا أحد يدرك ذلك بالطبع. فهم لا يفهمون أن بإمكان المرء أن يتحدث إلى أشباحٍ أكثر حياةً منهم.

أينما توجهت سأجد رجال الشرطة. موضع القمامة هو في مركز الحارة. ماذا يمكنهم أن يجدوا فيه غير جثة فتاة؟ أتعتقدون

أن ملاكاً سيهبط إلى "ترومارون" كي يريهم النور؟ لا ، هنا لا وجود سوى للموت. وإذا ما فوجئ الناس به فلأنهم لا يريدون أن يروا أي شيء. أما أنا فعيناي مفتوحتان. أعلم أن الموت سيقطفنا الواحد تلو الآخر بأعنف طريقة ممكنة. ولهذا السبب شرعت في استعماله.

حواء:

تفوح من الشقة رائحة الكبريت. ما إن أعود حتى يحصل الحريق.

إنهم ينتظرونني لحظةً فأخرى. الأسئلة هي الأسئلة لكنها ممزوجة بصبغة الخوف. سأتهرب من الإجابة كالعادة. ثم سأدرك الأمر. لقد غيَّر موت "سافيتا" كل شيء. أخذ والداها يصرخان بأعلى صوتهم بما كانوا يفكرون فيه بصمت: أنا من جرَّها إلى الهاوية. سيقولون إنها ماتت بسببي.

قال لي أبي: أتعلمين أي شيء عن موتها؟

وددت أن أقول له إنني لست المسؤولة عن ذلك لكنني لم أستطع. لأنها كانت أنا ، لأنني كنت هي، ولا أزال. لقد متنا نحن الاثنتان في اللحظة نفسها. لا فائدة مما تبقى مني. تختنق الكلمات في فمي، وأتقزز من طعم رضابي.

قال أبي: يقولون بأنك كنتِ قدوةً سيئةً لها.

أجبته: أتعرف أنت أيَّ وجودٍ للقدوة الصالحة هَهُنا؟

نهض في الحال ووجه صفعةً لي. كنت أتوقعها دون أي شك. ذلك أنه ليس لديه أي جواب على كلامي. تفاديت الصفعة فكانت أقلَّ تأثيراً.

عادت أمي إلى حالتها الأصلية. نهضتُ متعبةً. أنا لا أرغب في وجودهما. أنا لا أرغب في رؤيتهما. فهما لا يعرفان أي شيء عنها. وليس

لديهما أي تصور أيضاً. كيف يكون بإمكانهما أن يعرفا كيف عاشت؟ لم تكن تهمهما بأي شيء. إنهما يهتمان بما يفكر الناس به، بما يقوله الناس، بالمظاهر الخادعة، بالنفاق اليومي، بكرامتهما التافهة. كرامتهما؟ ليس لديهما ما يعتزان به. ذلك أن فمهما ملطَّخٌ بوحل الاغتياب.

قلت لهما: اتركاني وشأني.

لم أكن أفكر سوى باللجوء لشمس "سافيتا" الهادئة.

لكنه أفاد من تعبي فوجَّه لي لكمةً، لكمةً حقيقيةً على الوجه. دختُ ووقعتُ على المقعد فصرخَتْ أمي.

شدَّني من شعري وأجبرني على أن أنظر وأصغي إليه. فأغلقت عينيَّ وأذنيّ.

راح يصرخ ويشتمني بكلمات نابية. دخل في سورة من الغضب بحيث سمعه الجيران وجيران الجيران.

لم أعد أعير انتباهي لما يقوله. كان يصرخ على أمي وهو يمسك بشعري. وكنت أنتظر صابرةً أن يهدأ.

أول شيء قلته في نفسي إنه يجب علي أن أقصَّ شعري. أقصُّه فيصبح قصيراً قصيراً. أجزُّه حتى تظهر جمجمتي. سأصبح حليقة الرأس. سيصبح رأسي رأس لبوة، كي لا يجرؤ أحد على أن ينظر إليه وجهاً لوجه، لا يجرؤ أحد على لمسه، لأن لمس اللبوة يعني مواجهة أنيابها. لمس اللبوة يعني الشعور بأنيابها تنغرس في اللحم، أنيابها الحادة المدببة، أنيابها التي ستتشح بالدم.

وأخيراً، حين رأى عينيَّ تغربان تماماً، ترك شعري بعد أن نزعت يداه بعضاً من جدائله.

دخلت إلى غرفتي أخيراً. بصقت لعاباً مراً. ارتميت على سريري متجاهلةً الألم الواخز في رأسي. إن كل ما أعانيه لا يعتبر شيئاً قياساً بما عانته "سافيتا".

لقد انتزع الرجلُ السيِّدُ الجسدَ والحياةَ منها.

لقد حرمها من كبريائها فرماها في القمامة. أصدر مرسومه: أنت لا شيء. لم تعودي موجودة. لقد وُجِدْتِ عبثاً. ولا فائدة منك. هي ذي الضربة القاضية.

لقد سيطر الرجل بتفاهته. ماذا قالت؟ ماذا فعلت؟ هل صرخت؟ هل قبلت قدرها المحتوم؟ هل كانت سعيدة بنهاية معاناتها؟ هل فكرت بي وهي تلفظ آخر أنفاسها؟ هل سألتني عن سبب عدم وجودي إلى جانبها؟

في مكان ما، ينتظر جسدُها أن تُفَكَّ رموزه وهو ممدد على طاولةٍ تحت ضوءٍ ساطع. بغية اكتشاف ماذا؟ بغية اكتشاف علامات الموت؟ لا ضرورة لشق الجسد من أجل معرفة ذلك. اكتشاف بقايا؟ آثار؟ سوائل مجرمة؟ وأنا؟ هل سيجدون أثري عليها؟ هل سيجدون أثر يديَّ وشفتيَّ وفرحي؟ ماذا سيقول التشريح عنها؟ كوني صمتَكِ يا "سافيتا". فهم لا يستحقون أكثر من الصمت.

هناك في الخارج صوت فرقعة كهرباء. إن وجود الشرطة، علاوة على موت "سافيتا"، يعرِّي أسلاك التوتر التي تجتاح المدينة. الآن تكوَّن لدي انطباع بأنها قد رحلت وأنني سأواجه القوم لوحدي. تتجه كل الأنظار إلي. فأنا التي خرقت القوانين. وأنا التي بلبلت القواعد وعدَّلت المسافات وكسرت الأبواب المغلقة. أنا أزرع الفوضى.

تفـوح مـني رائحـةٌ كرائحـةِ شـحم الأمعـاء. أنـا مـلاك المدينـة الملعـون وروحها الخائبة.

كنت مقتنعةً بذلك لدرجـة أنني شـعرت بالنعاس والنـوم يقتربـان مني.

أمسـكت طرف الملاءة بيدي وسحبتها كالكفن. كان جسدي مسترخياً إلى درجة تكاد لا تصدر عنه أيّ حركـة في محيط السـرير. فتَّحـتُ عـينيَّ تحـت الكفـن. حاولـت أن أرى العـالم عـبر ثقوبـه. مـاذا سأفعل لو تواريت عن العالم؟ كيف سأعيش كشبح؟ أيذهـب الخـوف مني إذا أصبحت غير مرئية؟

انسبتُ فيما يشبه النـوم تحت كفني وأنـا أنظـر إلى هـذا العـالم الأبيض. عمـا قريـب سيخمد كـل شـيء. سـتهدأ أنفاسـي وإيقـاع دقـات الساعة المعطلة في أعماقي.

كليلو:

يجب أن أتوقع ذلك. أول شخص سيتم استجوابه هو أنا. أول مشتبه به هو أنا. لم يقل أحدٌ أي شيء بالطبع. بيد أن أشياء كثيرة تقال عندما لا يقال أي شيء. كبار السن سيتوقعون ذلك. سيقولون: إن أولئك الشبان ليسوا سيئين ولكنَّ بينهم بضعَ ثمارٍ فاسدة كما تعلمون. هناك من دخلوا السجن ومن يبحثون عن المشاكل دوماً. وكما تعلمون، عندما يكون القلب أسود، لا يمكنك أن تفعل أي شيء. لقد ولدوا هكذا، والعفن في قلوبهم.

اللعنة! ليس لدي عفنٌ في قلبي. العفن هم. لم ينطق أحد باسمي، بيد أنني لدي انطباع بأنه يدوِّي في الهواء منبعثاً من العيون كلها، من جرس الكنيسة الذي يدق في قداس يوم الأحد، ومن صوت دواليب السيارات. ومن جهة أخرى فإن لدي اسماً يرن كالجرس عندما يلفظونه. ثم إن رجال الشرطة ليسوا أغبياء جميعاً. إنهم يقومون بعملهم. فأن يكون أحدنا قد دخل السجن فهذا يسهِّل الأمور عليهم. ماذا كنت تفعل مساء أمس؟ مساء أمس؟ لا شيء. لا شيء؟ لا، لا شيء. لا بد أنك كنت تفعل شيئاً ما؟ لا، هناك لحظات لا أفعل فيها أي شيء. أين كنت؟ على سطح عمارتي. من رآك؟ العصافير التي مرَّت فوق رأسي، لا أعلم إن كانت عصافير "البنجال" أم عصافير "الكاب" أم العصافير الأمريكية، كما رأتني الجرذان التي خرجت لتشم الهواء في الليل. أو تهزأ بنا يا هذا!

لو فتشوا عن الأدلة لوجدوها في ملفاتهم. سيدي القاضي، إن هذا الولد ميّال للجريمة. لقد بذل المجتمع ما بوسعه كي يقوّمه، ولكن هناك أشخاصاً لا يمكن إعادة تأهيلهم يا سيادة القاضي. وسينظر القاضي إلي برصانة ويقول لي كما لو كان يقول لنفسه: أنت لا تتوب؟ وسأقول له: نعم أنا لا أتوب، لأنني لا أرغب في تأهيلي ولا في إعادة تأهيلي، ذلك أنني لم أقترف الجرائم التي تم إسنادها إليَّ حسب المصطلحات القضائية، ولم أفعل أي شيء على الإطلاق، فالجرائم الكبرى يقترفها الآخرون، ولكن رجال الشرطة لا يجرؤون على توقيفهم، ولو أجبروا على ذلك، فسيقومون به بكل رقة، ويعبِّرون لهم عن أسفهم قبل سجنهم، ولن يجرؤوا على أن يمسوهم بيدهم، ذلك أن رائحة المليارات الزكية تفوح منهم، كما يفوح منهم العطر النادر الذي يشكل حلماً بالنسبة للفقراء نظراً لتدني أجورهم. يجب أن نفهمهم، فهناك أشياء فوق خيال الفقراء، ومع ذلك يجب توقيفهم لأن الأمور تتم هكذا، يجب أن يشعر الشعب بأن هناك عدالة حتى لو خرجوا من السجن في المساء، وحتى لو رُميت الدعوى في مياه الصرف الصحيّ كي يتم إسكات أفواه الناشطين الذين يعملون من الفساد والأموال المهدورة والصناديق السوداء روايةً في هذا البلد، وبناءً على ذلك فأنا لا أتوب، وستلصق عملية القتل بي دون احترام ولا أدلة ظاهرة، أنا مذنب لأني أنا، أنا مذنب لأني حي، وسوف يدفعونني، ويصفعون رقبتي قائلين لي "ستعترف يا قواد"، وإذا لزم الأمر سيعذبونني دون أيّ ضجة، وفوق ذلك سيصبح الأمر رواية محلية، لن يخفقوا في ذلك حتى لو كانت "سافيتا" تستخف برواياتهم العنصرية،

ذلك أنها بموتها أصبحت رمزاً للتمييز العنصري، وأنا أيضاً، منذ قرون وأنا عدوٌ وعبدٌ وعتّال، وأن تكون هذه القصة ثقيلة فهذا لا يمنعها من أن تطفو إلى السطح عند كل مناسبة. لقد استمر ذلك منذ عدة قرون ولن ينتهي قريباً. صدقوني. حتى لو كنا نحن شباب "ترومارون" لا نعبأ باختلاف الأديان والأعراق والألوان والطبقات، وكل ما يقسِّم هذا البلد المنكوب، نحن شباب "ترومارون" ننتمي لمجتمع كوني واحد هو مجتمع الفقراء والبائسين. صدقوني أن هذا الانتماء هو الهوية الوحيدة المهمة.

سأرحل من هنا والأصفاد في يدي. ولن يكون بمقدوري أن أتفادى ذلك.

صاد:

لقد اقتادوا "كليليو". كنت أخمن أنه لا يجب أن يترك لوحده. فما إن يترك "كليليو" لوحده حتى يجلب المتاعب. أعلم أنه لم يقتل "سافيتا". لكنه المذنب. سيحاولون أن يجعلوه يعترف، وحتى لو لم يعترف فهذا لن يغير في الأمر كثيراً. يكفي أن يفتح "كليليو" فمه ليدين نفسه من تلقاء نفسه. إنه بريء في كل المعايير.

في أثناء ذلك سيطر على "حواء" هاجس جديد: سوف تذهب لترى جسد "سافيتا". لا أدري ماذا كانت ستفيد من ذلك، لكنني سعيت لرفض مساعدتها فلم تتراجع. يكفي أنها قد أصبحت تكلمني. كل شيء ممكن. عاد إلي الأمل. فاقتدتها إلى مركز الشرطة.

نظر رجال الشرطة إلينا بلامبالاة في بداية الأمر، ثم بازدراء عندما عرفوا من أين نحن. وقد نظروا هذه النظرة لي أنا بصورة خاصة. أما هي فقد نظروا لها نظرة عطف، ذلك أنها كانت تبدو صغيرة السن بقميصها الفضفاض وشعرها المضفور إلى الوراء مثل ذيل الفرس، نعم، كانت تبدو فتية كما لو أن عمرها خمسة عشر عاماً. زد على ذلك هذه البقعة الداكنة على وجنتها اليمنى، أليست هذه البقعة بمثابة العلامة الاعتيادية؟ أليست هذه البقعة بمثابة كتابة الحياة على هذه الأجزاء المكشوطة؟

اجتمع رجال الشرطة حولها كما تجتمع الدبابير حول المادة الدبقة.

استقبلنا المفتش واقفاً في مكتبه. كان رجلاً بديناً ذا مظهر أبوي، بيد أنني ارتبت منه. فقد لامس وجهها وداعب العلامة بإبهامه، إبهام كبير أسمر على وجه صغير، تملكتني الرغبة في أن أضربه، وأدركت من طريقته في النظر إليَّ أنه كان يعلم ذلك.

هل فعل صديقكِ بكِ ذلك؟

بل أبي، قالت له وهي تنظر في عينيه.

رفع يدها. قاسته. كانت تتساءل عما يجب أن تفعل حتى يوافق على أن يريها الجثة. راح كل منهما يقيس الآخر بنظره. لم يكن لي أيّ علاقة بكلّ ذلك. كانت هناك شيفرة تنتقل بينهما بصمت.

قال لها: إنها في معرض الجثث.

سألته: هل معرض الجثث بعيد؟

لماذا تريدين رؤيتها.

إنها صديقتي.

لا يسمح برؤية الجثث إلا للأقارب.

وأنا من الأقارب.

سيعيدونها لكم عندما تنتهي عملية التشريح. من الأفضل أن تنتظري.
وعاد إلى أوراقه نهائياً.

أخذتُها خارج المركز قبل أن تقوم بمحاولة أخرى، أنا لا أفهم هذه السهولة التي تعرض بها جسدها. كما لو أنه لا يعني لها شيئاً. بينما هو بالنسبة لي أغلى شيء في العالم.

اقتدتها إلى "كودان" لأنني كنت أعلم أنها لا ترغب في العودة إلى "ترومارون". كانت حزينة. جلسنا مقابل البحر وانتظرنا. أصبحت

البقعة الموجودة على وجهها بنفسجيةً تحت ضوء مصابيح الشوارع. فوجدتها جميلة جداً.

من جهة الفندق الفخم كان البحر يسطع بالأضواء الشفافة. ومن جهتنا، كان له مظهر الزيت ورائحة الإبط.

مرَّ أناس قربنا، جلسوا في مقهى، تنفسوا الهواء، شربوا كأساً من البيرة، تلذذوا بعذوبة الطقس، ولم يعرفوا شيئاً. قالت لي "حواء" ذات مرة إننا من كوكب آخر. إنها على حق. فشمسنا ليست شمسهم.

لم تقل أي شيء. لم ترَ أي شيء. لم تكن موجودة. كيف أصل إليها؟

نحن نمشي على درابزين من زجاج، على شفافية الفراغ. كان يفصل ما بيننا ألف صمتٍ وبُعْدُ اللا نهاية.

أشعلتُ لها لفافة. عبَّتْ منها بعمق فأصبحت عيناها كالعسل الساخن. تركَّز لونهما على لساني مثل عسل الأزهار البرية في جزيرة "رودريج". تصورت أنني قلت لها ذلك. ظلُّ القطا يعدو في جسدي ويرقص في شراييني. تكلمتُ ببساطة ووضوح، فقلت لها:

أنخرج مما نحن فيه؟

أنت ربما. أما أنا فلا. لم أعد على قيد الحياة. وقد استنفذتُ كلَّ ذخيرتي.

هناك خيارات. لا بد لنا من أن نتلاعب بالمظاهر والقناعات. وهذا ما يساعدنا في الخروج من هنا.

ابتسمت.

قالت لي: إن كلماتك التي تستوحيها من الآخرين تعينك على تملق البشر. مما لا شك فيه أنك ستخرج.

انزعجت من قولها هذا.

قلت لها: إذا استخدمتها فهي لي. أكون قد استحوذتُ عليها. فالكلام ليس ملكاً لأحد.

وهو ملكٌ للجميع. أنت حر فيما تريد أن تفعله. أما بالنسبة لي فلن أتبعك لأن الوقت متأخرٌ جداً.

كيف يمكن أن يكون الوقت متأخراً جداً وأنت في السابعة عشرة.

أجابتني: أشعر أنني عجوز.

نحن تقريباً أطفال نجلس على الدرابزين. وهي تشعر بأنها عجوز، ووردة العنف تزيِّنُ وجنتها. نهضت ومشت بضع خطوات أمامي. رقصت ووقعت في آن واحد. مددتُ يديَّ كي ألتقطها.

أيكون المكان هو من جعلنا هكذا أم العكس؟

لم أجبها. بل وعدتها في سري: سوف أخرجك من أنقاضك يا "حواء".

ونحن ندخن سويةً، كنا قريبين الواحد من الآخر أكثر من أي وقت مضى. ألقت برأسها على كتفي. كنت مفعماً برائحة التبغ العشبية وبرائحتها بصورة خاصة. بشرتها ولحمها. أحس بعرقها. أحس بشعرها. أحس بشيء آخر، شيء غامضٍ مُلِحٌ حي، شيء مطمور، شيء أنثوي تماماً بحيث تملكتني الرغبة وأنا في حالتي المضنية. ضممتها إليَّ. كم أشتهيكِ! قلت لها في نفسي دون أن أجرؤ على أن أقوله جهاراً. كم أشتهيكِ!

حواء:

حلّت خربشاتٌ جديدةٌ محلَّ عبارات "صادق" القديمة الغاضبة. فعلى قرص الدرج تفجَّر الحقد في هذه الخربشات. ومازال طعمها كطعم البراز في فمي.

لم يخرج أبي من غضبه. سرعان ما يضطلع بدوره. لم يعد الأب الذي يضرب ابنته بل أصبح الأب الذي "يؤدِّب" ابنته. كان عليَّ أن أتسلل من المنزل عندما يأوي الناس إلى بيوتهم. رحت أهرب من النظرات كي لا أشعر بحروقها على جلدي.

كان أبي يتحدث طويلاً مع سكان العمارة، ثم يعود ليتناول سمومه من النبيذ المحلي. وكانت أمي تتكفئ بداخلها كالسلحفاة. هو ذا الخلود.

لم أعد أفعل أي شيء في المدرسة. لم يعد لدي ما أفعله. حاول بعض المدرسين أن يكلموني، بيد أنني هزمتهم بنظراتي الميتة. والمدرس الآخر حاول أن يقترب أيضاً، دسَّ كلماتٍ في دفتري، وطلب مني أن أتبعه إلى قاعة "علم الأحياء". أصبحت رسائله متوسِّلة ومستعجلة، تجاهلتها. كانت ديدان الرغبة تنهمر منه لدى مروره قربي. منذ أن تم تشريحي على الطاولة، لم أعد أرى نفسي سوى جثة يسيل لعابه عليها.

أنا ميتة فعلاً.

لقد تواريت تحت الكفن فعلاً.

لا أدري لماذا لا يزال جسدي يتظاهر بأنه يتحرك في حين أن من الأفضل له أن يستريح.

كان يرتعش مثل ارتعاش الطقس الذي يرغب في أن ينتهي مما هو فيه. أيام حارة رطبة، أيام حلوة، أيام مفعمة بغبار الطلع، أيام مفعمة بالتلوث، أمطار تغرق الأرواح بقطراتها. شتاءات شاحبة مسطَّحة مثل ظاهر اليد. أصيافٌ تسبر الأجساد بأصابعها الحارقة. جفاف وأعاصير تتالى بسرعة. كل ذلك في سنة واحدة. سنة السابعة عشرة من عمري. لقد حصل لي كل شيء: الحياة والموت.

عشت حيوات عديدة. وحيوات أخرى لا أذكرها. وانتهت جميعها هكذا. مقابل الجدران.

رأيت فتيات يرقصن، ونساء يمشين بمحاذاة طريق مستقيمة منتقاة. رأيت رجالاً مفكرين وشيوخاً سُعَداء بملامسة الشمس لشعرهم الأبيض. رأيت صوراً في التلفاز، فرحة غامرة أو معاناة كئيبة لا تتطابق مع حالتي أو مع ما أرى. لماذا لا شيء هنا، في "ترومارون" يتطابق مع ما يجري هناك؟

أنا لا شيء. حادث مروري. شيء مبدد. فريد. مركزي. لامع. يفترسني الليل. لا حدَّ لشراهته. يمضغني. يقضمني قطعةً قطعةً، لكنه لا ينتهي.

على طاولة التشريح تتذكرك. تتذكَّركِ أو تتذكَّر ظلَّكِ، سيان. لكنه لم يعد يعلم فيما إذا كنتِ أنتِ أو تلك الأخرى التي نظرت من شق الباب في ذلك المساء.

رتَّب الكتب على الطاولة. فهو لا يحب الفوضى. طابقَ حوافها. إنها كتبكِ. لم ترجعي لأنكِ لم تعودي ترغبين في أن تشمي الروائح التي علقت بها. ولا الصور. ولا وجهك المسطَّع بين الصفحات.

على طاولة "علم الأحياء" مددَّكِ. من الذكرى فعل كل شيء. جسد أزرق عذب الأحشاء. شفاه بنفسجية مثل جرعات دم قديم. ذراعان نحيلان كأنهما غير مرئيتين. وختاماً يد صغيرة ذات كفٍّ رطبٍ تهوي على حافة الطاولة بلا حياة.

على طاولة حياته اجتمعت فتاتان. لم يعد يميز بينهما. ذلك أنهما جميلتان بصورة ظاهرة، وميتتان بصورة ظاهرة. مَزَجَهما، اليدَ مع اليد، والإبطَ مع الإبط، ونظر إليهما وهما تنصهران الواحدة بالأخرى ببطء

شديد. أحياناً يكون واقفاً، أحياناً جالساً، أحياناً متمدداً. كانتا تنسابان من مكان لآخر، تنقلبان وتتعلقان بشحوبه مثل لاعبات السيرك.

إنه أسعد رجل في العالم. تراه راكعاً، مولوداً من صلعته، من أيامه الضائعة حيث لم يعلم متى يعيش، من محاولاته العبثية لنشر معرفة لا يملكها، عاد ليصبح رجلاً في التجويف اللامع لجسدٍ منبسطٍ على الطاولة، ولبُنْيَةٍ يستطيع أن يقرأها على سطح الطاولة الغامق. الشرايين أنهاره. ارتعاش الجسد المفاجئ هو السبيل الذي يسلكه منتصراً منذ أول يوم جلبتِ فيه انحرافَكِ ونظرتَكِ التي لا ترحم. تجلبين ما تقدمين: قطعةً من لاشيء، قطعةً من كل شيء.

رأس مستند إلى الجدار بإيقاعه المتكاسل. هذا "السيد" الذي كنت تكافئينه بعد الجماع، والذي صلب كلَّ واحد بدوره. كل ما سيبقى منه بالنسبة لكِ: مجرد "سيد". مدرس مصاب في العجز عن الكلام.

إنه لا يفهم لماذا يناضل الآخرون من أجل هذه الكائنات الصغيرة المحنَّطة التي لن تتحرر من قيودها. يقول آخرون: إذا نجح أحدهم فهذا نصرٌ لنا جميعاً. لكنه عندما يدخل إلى الصف ويرى الوجوه الجامدة في قناع الرفض، في واجب المواجهة، في الارتياب من كل ما سيعطيهم إياه، وفي لا مبالاتهم بأيّ إمكانات أخرى، عند كل ذلك كان يشعر بنفسه وكأنه يموت. فيضع كتبه على الطاولة كما لو كان يغلق كَفَنَاً، ذلك أنه يعلم أن محتواها يفوح براائحة القبر. لقد تعوَّد على ذلك منذ البداية. يقرؤون فيه، بمثل هذا القدر من الوضوح والفظاعة، ما يجعلهم يعرفون كيف يزعجونه

فوراً. ظلَّ قلبه يدمع حتى اليوم الذي جاء فيه شعاعٌ من الشمس على شعرٍ طحلبي ليكشف له عن الكنز الموجود في صدر قاعة الصف، فخفق قلبه من جديد.

بدءاً من تلك اللحظة، فقد تغيَّر لون حياته، ذلك أنه قد رآكِ. اكتشفكِ فوجدكِ مثل حيوان صغير يختبئ خلف الطاولة، ويتمسَّك كي لا يقع. كنتِ محاطةً بفراغ لا تفسير له. وعندما كنتِ تذهبين، تذهبين وحيدةً بخطىً جامدة. أنت نحيلة لدرجة أنه كان يرغب في أن يحملك كما لو كان يحمل طفلاً رضيعاً. فأنت لا تثيرين أيّ ضجة. وأنت مفككة.

لم يعد يعيش إلا من أجلكِ. يستسلم لكِ في الليل. تغيَّرت حياته منذ أن عرفكِ. يكون في الثلاجة حتى يصبح معكِ. لكنك الآن تتمنَّعين.

إنه لم يخلق لهذه المهنة. لم يخلق لأي شيء. سيمضي حياته متأسفاً عليها. عجوزاً قبل الأوان، فقيراً في عطائه.

لقد انتهت الأوقات العادية.

كل شيء قد تهدَّم يوماً بعد يوم.

الأوقات العادية تهرب. كيف أوصلته إلى هنا؟

لقد تناول بين يديه جسد دمية. كان يعلم أن ذلك لن يجعله سعيداً. وما كان من ثأره من الحياة على الحياة إلا أن كسره إلى نصفين.

حواء:

أبٌ تقريباً. لا يعلم كيف يمسك بي. يتأمل. يفكر. يتساءل. تطفو الصور وتتكسر في ذاكرته. سرير مخرَّب. جسد مخرَّب. وأكثر من امرأة في فتاة صغيرة.

حب الطفولة سلبي. ثم يمر الزمن. تصبح الطفلة بَرِّيةً. ماذا على الأب أن يفعل لإعادة ابنته إلى رشدها؟ لحماية جسدها من جنونها؟ لإحقاق حقوقه؟ ولكن، أي حق له عليَّ باستثناء حق استخدام العنف؟

أمٌ غريقة. يضني اليأس جسدها وتود لو تجد وسيلةً بسيطةً للانتحار. لم تعد سوى كتلة من العار. لم تعد تجرؤ على أن تظهر بسببي. إنها تعرفني. وتعرف مدى التحدي عندي. إلى أين سأصل؟ لا إلى تحطيم نفسي فحسب، بل سأجرهم بجريرتي. أمٌ مسكينة مبتلية بفتاة عنيدة جداً. أليس هذا ما تخشاه جميع الأمهات؟ وامتدَّ الازدراء لها، هي أيضاً، إنها الأم التي لم تعرف أن تمسك بزمام الأمور، وتروِّض الدم الوحشي، وتخفف هذا الكبرياء الزائد والعناد الذكري الذي يدوي في رأسي.

للأطفال أجنحة من الرصاص، بيد أنهم يعتقدون باستمرار أنهم يستطيعون الطيران، إلى أن يتم العثور عليهم قمامة وسط كومة من القمامة.

سُدَّتِ النوافذ. انطفأت العمارات. الماء لم يعد يجري. انطفأ أي ضوء صديق. غرق الحي في السواد. لا أحد يخرج. هاجت الشلل وراحت تجمع السلاح. هنالك فتاة ميتة ولمّا ننتقم لها. فتاة أصرّت على أن تنبش الأنقاض. لا بد من إراقة الدماء. كانت الصرخات فقط هي التي تتعالى لتمزق الفضاء.

كان والدا "سافيتا" وحيدين في مواجهة حزنهما. فكرت فيهما في ذلك المساء. أود لو أقول لهما شيئاً عنها ، لكنهما سيشعران بالرعب لمجرد رؤية وجهي. لا يريدان معرفتي. يريدان أن يظلا وحدهما مع ابنتهما الميتة. غير أن الحدث الأخير جعل ابنتهما مخزية. فوراء تعابير الصدمة ، كان السؤال الصامت الذي يرتسم في عيون كل الناس ، هو: ما الذي فعلته كي يفعلوا بها ذلك؟

لقد أصبحت شريكةً حقيقيةً في مقتلها. وبعد قليل ستصبح متواطئةً. وبعد قليل أيضاً ستصبح قاتلةَ نفسِها. هكذا يفكر الناس.

يعتقد والداها أنها فتاة طبيعية بدون مشاكل. إنه من الغالي على الأهل أن تكون ابنتهم بدون مشاكل. إنهما لا يعرفان الوجه الآخر لوجهها الذي كُتِبَتْ عليه أجملُ قصةٍ في العالم. لم يكتشفا شيئاً من الابتسامة التي كانت تلهم فمها. كانا يثقان بمستقبلها وينكران حاضرها. حاضرها هو أنا.

كانا ينظران إلى أختها الصغرى وهي تشهق باكيةً. فيعودان إلى البكاء من فرط التأثر والحزن. إنهما يبكيان الآن على الصغرى وليس على الكبرى، كما لو كانا يريان جسدها الصغير أيضاً ، مهشَّماً على شاشة الرعب.

لم أعد قادرة على الحب. أريد قلباً مسطّحاً مثل جسدي، قلباً يعرف كيف يموت عندما تصبح الحياة ثقيلة.

ولم أعد مستعدّة لأن أشعر بالدوار. حتى أنني أحتاج على الدوام لأن أنظر إلى الفضاء. أنظر إلى الأسفل من على السطح الذي يلجأ إليه "كليليو" عادةً. في الأسفل هناك شيء ما ينتظرني. شكلي. ذراعاي. جناحاي. ساقاي المنفرجتان كثيراً. ووجهي الطفلي المستريح الطافح بالحزن والعزاء.

الطريقة الوحيدة لمعرفة الطيران: الخطوة إلى الخارج.

السير على سجادة الهواء، تواطؤ الريح في الآذان والشمس المجدِّفة يعبران زرقة السماء. والصرخة التي ترشح بين الشفاه ليست صرخة الخوف بل صرخة الحياة.

الخطوة إلى الخارج، الخطوة التي تقرر تدجين الفضاء. زمن التقاط اللحظة والأبد تماماً.

الخطوة إلى الخارج. خارج كل شيء. خارج جميع الناس. وخارج الذات.

ما ينتظرنا في الأسفل ليس سوى حادث مروري تافه. الخبر التافه الذي لم يعد يعنينا، لأنه يتعلق بأجزاء من الذات، أجزاء غير مقروءة أبداً. لقد اجتمعت جميع البدايات التي لم تنته هَهُنا، في هذه القبضة المغلقة.

لست مستعدّة للندم. لأنه تضييعٌ لزمنِ العيش الثمين. غير أن السؤال الحقيقي الوحيد هو: هل أنا قابلة للحياة؟

كليليو:

المكان مظلم. أغوص فيه. هذا المكان جحر. إنهم لا يسيئون معاملتي لكنني أعلم أنني لن أخرج من هنا. حياتي ستتوقف هنا. لا أفهم ما يحصل لي. أعرف السجن جيداً، ولكن هذه هي المرة الأولى التي يحصل لدي انطباع فيها بأن مصيري هو الهلاك حتماً. إنهم لا ينظرون إليّ كما كانوا ينظرون سابقاً. فعيون الحراس ورجال الشرطة لا تلتقي بعيوني. وقد جاء في عناوين الصحف: توقيف القاتل المتهم بمقتل "سافيتا". أستطيع أن أرى الصفحة الأولى عندما ينتهي الحارس من قراءة الجريدة. رأيت صورة "سافيتا". جميلةً كما هي دوماً. باسمةً مغناجاً. ولن أقول لكم كأنها تسخر منا جميعاً. ورأيت صورة لي، برأس مجرم محترف بكل تأكيد، وليس لدي من صورة بديلة عنها.

على الرغم من ذلك، بدأت أرسم المشاريع فيما لو خرجت من السجن. سأجد عملاً، هذا لا شك فيه. سأنتهي من لعب دور المجنون. سأنتهي من التظاهر بأنني سوف أحطم وجه جميعَ الناس. سأنتهي من الرغبة في أن أسترعي انتباه الآخرين بأي ثمنٍ كان. سأكون دميماً وأبعد عن المشاكل. سأترك الشلة. سأكف عن قضم أظافري. سأكف عن حلق جمجمتي. سأنزع الوشم عن جلدي بالأسيد. سأكف عن تقطيع "كارلو" داخل جسدي.

كان "كارلو" على حق عندما رحل. هذا ما يجب فعله للخروج من هنا. قطع الروابط مع الماضي، وإلا فستشدك للوراء ولا تتركك ترحل. كان أخي "كارلو" على حق. لم يعد ليبحث عني، لكنه رحل من أجلي. ليثبت لي أن ذلك ممكن. حتى لو كان لديه سيارة "رينو" فسأسامحه. حتى لو كان يكذب على أمي عندما يقول لها إن لديه بيتاً مكوَّناً من عشر غرف، سأسامحه. إنه لا يستطيع أن يتصرف بطريقة أخرى. أريد أن أرحل. أنسى "ترومارون". أنسى أنني ولدت هنا. وأنني كدت ذات يوم أن أموت هنا. كان من المفروض أن ترحل "سافيتا"، هي أيضاً. لكنها لم يكن لديها الوقت الكافي لذلك. غير أننا لم نقتلها.

وأبي، يجب أن نفهم لماذا هو هكذا. فالبيت الذي كنا نملكه قبل الإعصار كان قد اشتراه هو وأمي. كانا قد انتهيا من دفع أقساطه فأصبح بيتهما حتى لو لم يكن يشبه البيت، وحتى لو كان متخلخلاً مثل دماغهما. وعندما حطَّمه الإعصار وفقدا كل شيء، أصبح من المستحيل عليهما أن يبدأا من جديد. تحمَّلت أمي المسؤولية كاملةً. هكذا هنَّ الأمهات. أما هو فلم يستطع، يجب أن نفهمه أيضاً.

كأنني أصبحت قديساً في السجن. رحت أتفهم جميع الناس. لم أعد أفكر بنفسي. فكرت في "صاد". ذلك المسكين الصغير، عاشق "حواء" الأحمق. ولكن لا. إنه ليس أحمقَ. إذا لم يحب المرء في سن السابعة عشرة فمتى سيحب إذن؟ هذه هي مشكلتي على ما أعتقد. أنني لم أحب أحداً، أنني لم ألتق بأحد. ربما أنني لم أحاول، وأنني كنت منهمكاً جداً بغضبي.

ولكن إذا كنت قد أصبحت قديساً فربما يجب علي أن أصبح قساً إذا خرجت من هنا. وإذا أصبحت قساً فهذا يعني أنني لن أستطيع أن أقع في الحب. من الأفضل لي ألا أتغيَّر كثيراً إذن. ومن جهة أخرى، يكفيني أن أنظر في وجه الحارس حتى أدرك أنني لم أتغير كثيراً: فأنا أرغب في قتله.

خيَّم الليل. كانت أفكاري تشبه هجوم نحلات قاتلة أو هجوم الأشرار في فيلم رعب. ما إن أغمض عينيَّ حتى تخرج من جميع الشقوق وتنقض عليَّ. ترتمي عليَّ وتبدأ تقرصني في كل مكان. أتحرك، أصرخ، أهز ذراعي لدرجة إزعاج جميع الموقوفين، لكنني لا أستطيع أن أطردها.

إذا خرجت من هنا، فسأمارس الحب مع أول امرأة ألتقيها. إن لم تكن بشعة جداً. وإن لم تكن أمي طبعاً، فمن تظنونني؟

حواء:

وافق المفتش أخيراً على أن يأخذني إلى مكان عرض الجثث. لا أعلم ماذا فعل، لكنه نجح في ذلك. لا بد أن له صلاتٍ ما. ثم إنه قد تعاطف معي. لا يهمني كثيراً كيف تصرَّف. إن ما يهمني هو أن أرى "سافيتا".

داخل مكان عرض الجثث، كان للضوء والرائحة نفس اللون الضارب إلى الاخضرار. أعتقد أن الأفلام كانت قد أعدَّتني لذلك بما فيه الكفاية. لكن الأفلام لا تشبه الحقيقة. هَهُنا شيء آخر. القذارة في الزوايا. العفن يغطي السقف. والجدران تفوح بالروائح الكيماوية.

كان الجسد بكامله مسترخياً، والمكان ثقيلاً بسبب وجودهم. كل من مرَّ من هنا ترك أثره. على الجدران، على الأرض، على السقف، وفي الهواء. كانت آثارهم مثل أفواه لا مرئية مطبقة على صمتها. لم يرحل أحد بصورة نهائية.

أخذ المفتش بذراعي وقال لي: لستِ ملزَمة بذلك.

لا، لم أكن ملزَمة.

هدأتُ. لم أنوِ أن أتراجع. بعد ما كابدته "سافيتا"، أستطيع أن أكابد كل شيء. ثم إنني رأيتها في خيالي آلاف المرات مثلما هي الآن. لم أنقطع عن رؤيتها في دثار الموت. وها أنا أراها الآن حقيقةً.

سكونٌ وشحوب. وجهها قاسٍ صلبٌ كأنه من زجاج. مع آثار الأصابع على عنقها. أعرفها ولا أتعرف عليها. هذا هو شبابها على ما أعتقد. عندما يأتي الموت باكراً يجعل الميت غير معروف. ثم هناك هذا المظهر المزرقُّ القريب من البنفسجي الذي اتخذه الجلد. كم أثرت بي هذه الغرابة!

ولكن، فيما بعد تعرفتُ على فمها. أتشبث بذلك. هذا الفم ذو الحواف الغامقة هو فمها، فم "سافيتا"، أنا سعيدة بأنني استطعت أن أستعيدها أخيراً. نعم. لم أبدأ في نسيان ملامحها كما اعتقدتُ قبل قليل. لم أخنها. ما زلت أستذكر صورة فمها كشيء عزيز على نفسي، شيءٍ ستظل حواسي تستعيده لفترة طويلة جداً.

شرحتُ لها أنني كنت قرب النهر، ولهذا لم أسمع أي شيء. قلت لها بالنسبة لي أنا فإن الحياة هي التي شوَّهت ملامحي بحيث لم يعد بالإمكان التعرف عليّ.

مررتُ بيدي على وجنتها. انحنيتُ، لكن المفتش أمسك بي. وقال لي: لا.

اقتادني إلى مشرب ومطعم صغير حيث عدد الذباب أكبر من عدد الزبائن. توقعت أن يقول لي شيئاً ما، أن يطلب مني شيئاً ما مقابل الخدمة التي أسداها لي. بيد أنه لم يطلب أي شيء. لكنه طرح عليَّ أسئلةً. من النافذة القذرة كنت أرى الناس يمرون. نعم. كان هناك، في الخارج، أناسٌ لا يعرفون "سافيتا" ولم تتوقف حياتهم مع توقف حياتها. رحت أروي عليه قصتي دون أن أعرف السبب. في أي عمر

بدأت. أين ذهبت. حدثته عن تلك الأماكن التي يعرفها جيداً. كانت أسئلته تأخذني بعيداً أكثر فأكثر. كان سلوكي قريباً من سلوك المجنون، وكنت أرى ذلك جيداً. لا بد أنه كان يقول في نفسه: هذه الفتاة مجنونة.

نظر إليّ كما لو كان مغمىً عليه وقال:

ألا تزالين على قيد الحياة؟

ثم سألني أيضاً: إلامَ أوصلكِ ذلك؟ أصبحت يداه على الطاولة عصبيتين، وراح يمزق منديلاً من الورق حتى لم يبقَ منه سوى الفتات. كنت أخشى أن يلقي هذا الرجل القبض عليّ إذا اقترفت جريمة ذات يوم. إذ لا يمكن لأحد أن يقاوم هاتين اليدين.

انتهيت بأن أجبت على سؤاله:

أمرُّ من خرم الإبرة. بغية...

بغية ماذا؟

بغية الاستمرار.

كان من المفروض أن يكون السؤال التالي هو الاستمرار في ماذا، لكنه لم يسأله. أصبحت عيناه متعبتين، وأصبح رأسي فارغاً. كنت أعتقد أنني اخترت لنفسي حياةً. لكنني لا أعلم ما هي.

سألني إذا ما كانت لدي متاعب صحية. أدركت مغزى سؤاله، لكنني تظاهرت بأنني لم أفهم. أظهرت له البقعة الزرقاء التي انقلبت إلى صفراء على وجنتي، وقلت له: هذا النوع من المتاعب. نعم. أعاني منها كل يوم.

لم يعد ينظر إلي، أعتقد أنه كان يحاول أن يتصور ما فعلوه بي، وما جعلوني أفعله، وما سيجعلوني أفعله. وفي المرآة الموجودة في صدر المشرب نظرتُ لصورتنا وعرفتُ أنني أبدو صغيرة، صغيرة جداً، كخيط رفيع، وشيء صغير ملتهب، وأنه يود لو يستطيع إيقاف انحرافي، لكنه لم يكن يعلم كيف.

ثم أصبح عصبياً فجأةً:

وإذا أودعتكِ السجن لبعض الوقت، ستكونين ملزَمة بأن تتوقفي، قد يشفيكِ ذلك، أليس كذلك؟

نهضتُ كي أرحل. انتهى الحديث. لم يبقَ أي شيء يقال.

همس قائلاً: من الصعب تصديق ذلك. بيد أنه يجب عليك أن تدافعي عن نفسك. أريدكِ أن تعيشي.

أوصلني إلى "ترومارون". لم أقل أي شيء في الطريق. غير أنني أذكر شيئاً قاله هو: "سافيتا" لم تغتَصب. أفترض أنه أسرَّ لي بذلك كي يطمئنني. ولكن لماذا قتلوها إذن؟ لم يقتلوها ثأراً، ولا عنفاً جنسياً. أكان ذلك بدافع التسلية؟ أكان ذلك من أجل أن يسكتوها؟

وصلنا أمام الأبنية. السماء منخفضة. هنا شيء ما يترصد دائماً. روح مرتجفة حية مشؤومة.

جاء وفتح لي باب سيارة الجيب، مما لم يكن مألوفاً جداً. وقبل أن أنزل دسَّ شيئاً ما في حقيبتي.

لا تستخدميه إلا دفاعاً عن النفس، أتسمعين؟ قال لي ذلك بهدوء.

هززت رأسي. لم أعلم لماذا فعل ذلك. فأنا لم أعطه أي شيء.

أخذ بكتفيّ وأنا أنزل، وهزني قليلاً.

قال لي: كوني جيدة.

هززت كتفي. ذلك أن الوقت متأخر جداً كي أكون واعية.

لم أنتبه إلى أننا أصبحنا وسط العمارات إلا عندما غادرني. كل النوافذ أُشرعت باتجاهنا. كل الناس رأوني أعود إلى "ترومارون" بسيارة الشرطة، كل الناس رأوا المفتش يكلمني بهدوء وبصورة حميمة. لقد تعاهدت مع العدو. وكالعادة، فعلت ما لا يجب فعله. سمعت الفكرة الجماعية التي كانت تنبثق من النوافذ الغاضبة: هذه المرة كانت بعيدة جداً.

بدأت الأرض تميد تحت قدميّ وانهارت نهائياً لحظة دخولي إلى الشقة.

ولكن، وبعد كل شيء، لم يكن لي في أي وقت من الأوقات أي أرض أضع قدميّ عليها.

مقاربة. هل هناك مقاربة؟

ربما نعم. وربما لا. لقد أعاد الناس استذكار المشهد بطرق مختلفة:

عندما جاء ليفتح لكِ باب سيارة الجيب، رفعكِ مثل قشّة، مثل ساق نبتةٍ صغيرة، كانت يداه الضخمتان تحيطان بقامتك، ثم وضعكِ على الأرض كما لو كان يضع شيئاً قابلاً للكسر.

عندما جاء ليفتح لكِ الباب، خبّأ جسدكِ شبه العاري تحت صُدرته البوليسية، وكان على ذراعكِ بقعتان زرقاوان.

عندما جاء ليفتح لكِ الباب، انحنى عليكِ وأصغى للأسرار التي كانت تنهمر كالضباب الشاحب من فمك.

عندما جاء ليفتح لكِ الباب، ابتسم ابتسامة انتقام كما لو كان يقول: ما علينا سوى أن نتماسك جيداً، فبادلتِه الابتسامة نفسها.

من نافذة لأخرى، كان الغضب مثل عصفور مجنون يرفرف ويصدم القضبان حتى يكسرها.

الرجلُ قدرُكِ وموتُكِ.

عندما جاء ليفتح لك الباب، قبضه على مصير "ترومارون" من خلال يديك.

وفي كل مكان حولنا، كانت الأبواب تنطبق بقوة ضحكةٍ مشوَّهة.

صاد:

هذا هو المفتش الذي قابلناه معاً. لقد ذهبتْ لرؤيته. وعادت معه. حواء، يا حواء، ألن تنتهي لعبتك؟ أهكذا نجحت في رؤية "سافيتا"؟ وما الفارق بين أن ترى جثتها وألاّ تريها؟ فهي ليست موجودة داخل تلك الجثة، أليس كذلك؟ إن ما رأيتِه هو شيء آخر: قناعٌ، ربما أنه كان قناعكِ أنت أيضاً.

أدورُ أدورُ في قفصي. وأسلّطُ أضواءً سوداءَ على الجدران.

أمن الممكن أنك لم تسامحي نفسك لأن "سافيتا" كانت تنتظرك وترافقك بعد الدوام؟ كانت تعتقد بأنها تحميك، لكنك عرَّضتِها لأكبر خطر. لم يكن لديها أيّ علاقة بقصصك.

أتصور مسيرتهما. أراهما تعودان معاً، بعد أن بعد أن تكون "حواء" وذلك الرجل قد. كان قد خيَّم الظلام. من كان يتبعهما؟ من انتظر حتى افترقتا وتبع "سافيتا" وليس حواء؟ ولماذا سافيتا وليس حواء؟ هل كان ذلك محض صدفة؟ بماذا كانتا تختلفان الواحدة عن الأخرى؟ وبماذا كانتا تتشابهان؟

تأخر الوقت، لا أريد أن أنام، أريد أن أفهم.

ثم إنني أعتقد أنني أعلم. أعلم مثلما تعلم "حواء".

الشلة تنتظرني. اشتقتُ لجولاتنا الليلية على الدراجات الهوائية والنارية. حين يفتح الليل ستائره لنا، ونستنشق نسمة

المدينـة، ونعلـم أن هنـاك مـا يقـال في طاقـة أجـسادنا الحـارة. إنهـا اللحظـة الأولى. الدقيقـة الـتي تنفجـر وتمنحـك الـشعور بأنـك تحيـا. فلدقيقة، وللحظة، تعيش مثل علامة موسيقية صادرة عن الجيتار، علامـة منفـصلة لكنهـا تـسمع مـن بعيـد. لا للمـوت. لا للكـفّ عـن الوجود.

لكـني لـن ألتحـق بهـم لأنـني أعـرف عمـا يتكلمـون. أحتـاج للـتفكير. رأيـت غـضبهم عنـدما عـادت مـع ذلـك الـشرطي. كيـف استطاعت أن تكون على هذه الدرجة من الغباء؟ في أن تعود بسيارة الشرطة. يبدو أنها لم تفكر حتى في ذلك. فهي لا تفكر إلا فيما تهتم به. والآخـرون هنـا لا يهمونهـا بشيء. أعرفهـا تمامـاً، أعـرف تلـك الفتـاة التي اخترعتها.

إنها تـريد أن تمتلك وقتها وأفعالها وقراراتها وجسدها. تـرفض أن تكـون ألعوبـة. لكنهـا لا تمتلـك شـيئاً مـن كـل ذلـك. ثـم إننـا جميعنـا ألعوبة.

في مكـان مـا مـن المـصنع المهدَّم يتم شـيء مـا. نـور أحمـر يغطـي الأبنيـة، يكـنس الـسماء، ويحـزز الواجهـات. ومثـل الأشـباح في أفـلام الرعـب، يخـرج شـيء مـا بـلا انقطـاع مـن تجويـف أو كهـف أو حفـرة مجاري أو منفس جحر. إنها الغيلان التي شكّلناها وزجاجة الخمـر في يدنا، الغيلان المستعدة للالتهام والافتراس. وفجأةً تتخذ الحياة هذا المظهر المعادي.

ولكننا عندما يتوارى العدو، نعود شـرهين ومهلوسين، بعضنا إزاء بعض.

إنهم يفكرون في "كليليو" الموجود في السجن. إنهم يفكرون في "سافيتا" المتوفاة. إنهم يفكرون في "حواء" وهي مع الشرطي. المعادلة واضحة تماماً. عليها أن تتحمل.

يا "حوائي" التي تعتقد أنها ولدت بقلب من الفولاذ دون أن تعلم أن ما يعيش في داخلها هو صفار الذهب وحرارته، وبأنها لن تكف عن الانصهار والهروب، وأنه لن يبقى من هذه الفتاة المنصهرة سوى سبيكة بلا وجه ولا شكل.

في المصنع المهدَّم اجتمعوا ليقرروا خطة العمل. قال البعض: يجب وضع المتاريس حول "ترومارون". قال البعض الآخر: لا، يجب مهاجمة أولئك الذين يهددون "ترومارون". لنشعل النار في مركز الشرطة. لنحطم بعض واجهات المحال. لنقلب بعض السيارات. لنريهم مع من يتعاملون. لن نسمح لهم بأن يجعلوا من "كليليو" كبش فداء. سنلزمهم بأن يتركوه، وإلا فسيقتلونه في السجن، هذا أسهل عليهم من انتظار المحاكمة. لقد أصبح كلُّ شيءٍ مفهوماً تماماً. سيعيدون الكرَّة نفسها معنا، وبعد ذلك يقولون بأننا جميعنا متشابهون، جميعنا قتلة، ولا نستحق أكثر من جدار عازل حول المنطقة، جدار لا نستطيع تخطّيه. سيجعلون من "ترومارون" سجننا ومعسكر اعتقالنا.

أصبح الجميع مستعدين لأن يقاتلوا كي لا يسجنوا، وقد ساعدهم في ذلك الخمر ولفافات التبغ. وعلى ضوء مصابيح البترول راحوا يصنعون قنابل "المولوتوف". كانوا يغمسون قطعاً من القماش بالبترول ويدسّونها ضمن قارورات وسجائرهم على فمهم. كانوا يتحركون مدفوعين بطاقة كبيرة من العنف.

ثم قالوا: ولكن، قبل ذلك، قبل ذلك، يجب أن نجدها. فهي التي تسببت بكل شيء.

أصبح لغضبهم الآن هدفٌ محدد.

بخط القلم الذي لا يمحى، وعلى جدران غرفتي، رحت أكتب بسرعة كبيرة مثل مريض، أو مجنون يرغب في أن يروي كل شيء قبل أن يصبح نسياً منسياً. إنها قصة مفككة وعرجاء، مصنوعة من المرارة والغضب، غير أنها القصة الوحيدة التي أعرفها. حياة الناس أمثالي هشة لدرجة كبيرة، وهم غير واثقين من أنهم سيموتون قبل أن يلمسوا الأشياء. تتبدد آمالهم في الصباح مثلما يتبدد الغبار على أقدامهم. ولا تطمح روحهم لأن تطير فوق النجوم عند موتها، بل تطمح لمجرد حيِّز في القبر. ولذلك فقد بدأت المتاريس من عيونهم.

من يدخل غرفتي سيواجه لغزاً آخر. لقد قلت على الأقل ما يجب أن أقوله. يجب أن نهرب يا "حواء". يجب عليَّ أن أساعدك على الهرب.

حواء:

غرفتي المليئة بالدخان تشبه مكان الانتحار. منذ أن أغلقتها على نفسي، دخَّنتُ كل ما وقع بيدي. لكنَّ الألمَ ماثلٌ دوماً، وأنا ماثلةٌ دوماً هَهُنا.

ومرة أخرى، نزع أبي قسماً من شعري. بيد أنه قد رفعني منه هذه المرة ليترك جسدي يتأرجح في الهواء.

لم أعد أعلم أين أتألم. لم أعد أعلم أين وبماذا اصطدمت. في كل مكان ربما.

دُسْتُ السيجارة الألف على مشمع الأرضية المليء بالثقوب ونزعت ملابسي. كان لا بد من أن أنزع الملابس الملتصقة بجلدي. نظرت لنفسي في المرآة. صُعقتُ لمظهري: ذلك أنني لم أنتبه للأضرار على الرغم من شعوري بكل هذه الآلام. سقطت على السرير مقابل المرآة. لا أدري ماذا أشبه. لا أشبه شيئاً، أي شيء على الإطلاق.

هل بقِيَ مني ما يدلُّ عليَّ؟

كان وجهي مبرقعاً: بقع صفراء، وزرقاء، وبنفسجية، وسوداء، وحمراء. لو لم يكن ألمي شديداً لضحكت من منظري. كنت أشبه مهرِّجاً بعُدَّتِه البسيطة. لم أكن أعلم أن المرء يمكن له أن يتزين بكل هذه الألوان المختلفة. بيد أنني شعرت بالألم عندما

حاولت أن أبتسم. إذ انفتح جرح صغير على طرف فمي. ثم جرح آخر داخل فمي. ثم انفتحت فجأةً جروح لا تحصى داخلي. كأنني قد تشققتُ.

أخذت المقص من الدرج.

وجدتني أمي على هذه الحالة، منكفئة على نفسي، محاطة بالعزلة، وحاملة المقص باليد اليمنى.

لأول مرة تكون أمي هادئة. فقد ركعت أمامي وحاولت أن تنتزع المقص من أصابعي لكنها لم تستطع. كانت يداي قويتين ويداها مرتجفتين.

قلت لها: اتركيني.

قالت: لن أتركك تفعلين هذا.

اعتقدت بأنني سوف أنتحر بهذا المقص المهترئ.

رأيت الشعرات في المرآة: كانت هذه الشعرات تهرب من جمجمتي كالألعاب النارية، مثل شخصيات القصص المصورة عندما يحصل انفجار في وجوههم.

جلستْ أمي على السرير. مرَّرتْ يدها في شعري. أفترض أنها حاولت أن تعدَّ كم مرة كان لمس شعري أمراً سهلاً. طالما أن شعري هو الجزء الأقوى من جسدي، الجزء الذي من خلاله يمكن لمس طاقتي وإخمادها.

ذلك أنه هو الجزء المرئي من أنوثتي، من هنا بدأت جراحي ومشواري.

أعتقد أنني سمعتها تغمغم: لقد تركتكِ.

اعتقدتُ أنني كنت مخطئة. لكنها كررت ذلك بوضوح: لقد تركتك. ينبغي ألا تقول أيُّ أمٍ لأبنائها ذلك القول. فهذا ينمُّ إما عن الجبن أو عن الاستقالة.

أخذتْ صدرة بيجاما من الخزانة وساعدتني على ارتدائها. ثم قالت لي: أعطني، سوف أقصه لك.

أخذت المقص وبدأت تقص شعري. كان الشعر يتقصف والمقص يصرصر. ثم سقط جديلةً فأخرى. لقد تلذذتُ بالصوت الناجم عن عملية الحلاقة، صوت جفف دموعي التي كان من المفروض أن تنهمر. كان يبدو لي هذا التماس، هذا القرب من أمي غريباً بعد سنوات عديدة. حاولتُ أن أتذكر متى كنا قريبتين واحدتنا من الأخرى. منذ مدة طويلة. كان إحساسي بيدها على جمجمتي ممتعاً. أعتقد أن هناك سحراً خاصاً في لمسة الأم. لكن هذا متأخرٌ جداً بالنسبة لي. لن أتراجع. ولا أريد عزاءً.

عندما انتهت من قص الجدائل الكبرى، ذهبت لتجلب ماكينة الحلاقة التي لزوجها، وحلقت لي الشعر القاسي.

نظرتُ لنفسي في المرآة. نجحتُ هذه المرة في أن أبتسم. لدي رأسٌ طريفٌ حقاً. لقد انمسختُ. أعتقد أنني أصبحت أشبه ما أريد: اللبوة. أصبحت أشبه لبوة جائعة في حديقة حيوان بسيطة أكثر مما أشبه اللبوة ملكة البراري، لكن ذلك غير مهم. سيشتد ساعدي.

لم تأتِ أمي لتراني.

عندما ذهبتْ ارتدتِ اللبوة سروالاً وهي تزمجر. ثم تناولت حقيبتها وخرجت دون أيّ ضجة، كما تعودت أن تفعل دون أن يلاحظها أحد.

في الخارج لن يلاحظوني حتى لو كنت أعرج. أصبحت غير مرئية، وبالكاد أبدو إنسانة وتجسيداً لإرادةٍ تحركني وتجعلني أقف بشموخ.

ينتظرك. يعلم أنك ستأتين. يعلمه من خلال النسمة القادمة المتعَبة. لقد ذهب الأمر بعيداً. لم يعد يدرك معنى أفعاله. يعلم أنك ستعرفين ما حصل في وقت من الأوقات. فالشرارة في فكرك وذاكرتك.

جلس أمام التلفاز الذي يتحرك بصمت ويغمره بضيائه الأبيض. لقد أتيتِ سابقاً لتأخذي كتباً من عنده. إنك تعلمين أين يسكن إذن. ستفتحين الباب وتستنشقين رائحة مبيد الجرذان. ربما أنك ستظنين أنه اختار هذه الطريقة القديمة في الانتحار، هذه الطريقة الصعبة والمؤلمة، ثم إنك سترين جسده الأخضر يتلوى من الألم ووجهه جامد في تكشيرة موجهة للحياة. اطمئني. لن يقدِّم لكِ مثل هذه الفرصة.

سيقول لك: اجلسي. ستنظرين إلى نسيج المقاعد الزهري الذابل وتظلين واقفة.

سيأتي نحوك ويضمك. لن يصل رأسك لمستوى صدره. سوف يشعر على الرغم منه باهتزازاتٍ في أسفل بطنه، ويرغب في أن يضمك بصورة أقوى وهو يتذكرك، كذكرى سابقة، كماضٍ بعيدٍ جداً.

لكنه سيفكر هذه المرة وهذا المساء بصورة خاصة عندما تترنح الأشياء وينقلب الزمن. بينما يكون وجهه مختبئاً فيكِ، وبينما تبدئين النزيف. سيدرك هذا الإيلاج الحار في المكان العميق الذي ولد منه، في هذا القربان الشهري المصنوع من نسيجٍ غريبٍ كثيفٍ وسائلٍ في الوقت نفسه، هذا القربان الذي يجعل شفتيه تحمرّان بطعمه النحاسي. سيبتعد. سيرى بانفعال تلك الشبكة التي تنزُّ ببطء، لا كجرحٍ بل كأثر جرحٍ ينفتح فجأةً. وعلى عكس ما هو متوقع، سيبدو له دم المرأة هذا، هذا الفيض البركاني المطمور، شيئاً مقدَّساً.

عندما نهض كنت تنظرين إليه. وضعتِ يدك على فمه. كان فمه أحمر اللون. أحمر اللون منكِ، هل فكرتِ في ذلك. وهو ينحني عليكِ، ربما أنه كان يشبه مصاص الدماء. ربما أنه كان يشبه شخصاً من طائفة شيطانية تشرب الدماء. ربما أنه كان يشبه كائناً بدائياً يشرب دم أمه مع حليبها. في حين أنك لم تظنيه سوى طفل احمرَّت شفتاه بعصير الجوافة.

ورغم الارتباك الذي كان يشعر به، فقد لمحَ الابتسامةَ التي ارتسمت بسرعة في عينيكِ. قال في نفسه إنها أول مرة يرى فيها طيفَ ابتسامةٍ في عينيكِ. أول مرة يمر فيها شيءٌ ما بينكما. شيء يختلف عما يمرُّ من جسدٍ إلى جسد.

بانت له جميع أنواع الإمكانات التي لم يستشفّها من قبل، بان له المستقبل والشمس التي أدخلتها في حياته، وانقشاع الستار عن الظلمة التي كان يظنها أبدية. كل ذلك قد بان لهذا المغفَّل من خلال انعكاس ظلّ ابتسامتك.

ثم، وفي هذه اللحظة بالضبط، سمع حركةً عند الباب. التفتَ فرأى انحسار الضوء من فرجة الباب الذي لم يغلق جيداً. (كيف لم ينتبه لذلك)؟ رأى نفسه حينذاك بنظرة رجل آخر: محمرَّ الفم بدماء امرأة. حصل الانقلاب على الفور. فشعر بالخجل فجأة.

الخجل من نفسه لأنه وصل لهذه الدرجة. الخجل من الفضيحة لو ذاعت القصة. الخجل من الإذلال لو تم تسريحه. لقد ذبحته هذه الحكاية البسيطة. وانهار القليل الذي كاد يوشك أن يبنيه في حياته.

انتظر أن ترحلي. نظر من النافذة ورآكما تذهبان الاثنتان معاً. تبعكما ثم تبع "سافيتا". قتلها دون حقد ودون عنف تقريباً. وللحظة كان لديه انطباع بأنها راضية. ولكن ربما أنها كانت هشة بكل بساطة.

تكمن هشاشة جسد المرأة في غياب المقاومة. إنهن يغادرن الحياة لدى أول ضربة. ولا يبقى منهن سوى شيء بلا إرادة، حتى أنه ربما لا يكون شيئاً، بل عدماً، زوالاً. ولكنها كانت قد ماتت قبل ذلك، تلك الفتاة صاحبتك، قبل أن يضعها في القمامة معتقداً أنهم يفعلون هكذا، هم، أولئك الذين يسكنون هذه المدينة، لو أرادوا أن يقتلوا. (احتقارٌ لا واعٍ لكنه قاطع). ماتت في اللحظة التي رأت فيها زهرة حمراء تنبت

على فمها. ماتت عندما رأت عينيها الحزينتين، وعندما عرفت بأنه لا يقتلها بدافع الحقد.

لا، ليس بدافع الحقد. بل بدافع اللامبالاة دون شك. وهذا هو الأسوأ. حتى أنه لم يندم على ما فعل.

والآن ينتظرك. يعلم أنك ستأتين. لن يأخذك بين ذراعيه كهدية سقطت عليه من السماء. بل سيستنشق رائحة فانيلا لحمك، ويلمس قميصك الناعم ويرتجف عندما يفكر بكل ما هو موجود تحته. سيعلم حينذاك أن هذه هي آخر الأحاسيس الذكرية قبل أن يموت بدوره.

كليليو:

كانت المحامية التي عُيِّنت من المكتب صغيرة لدرجة أنني اعتقدت أن الأمر طرفة. لم أقل أي شيء، لكنها لاحظت من خلال وجهي أنه لا فائدة من تعيين محامية شبيهة برضيعٍ يضع مريلته الجديدة فلا يتّسخ إذا أكل أو دافع عن زبائنه.

وبما أنها صغيرة بأهدابها الناعمة فوق العينين، لم أرغب في مهاجمتها. وبعد كل شيء فهي ستكون أول شخص أراه بعد خروجي من السجن. أو أنها، همس لي صوت يشبه صوتي لكنه أقل حماقةً، ستكون آخر شخص أراه قبل أن أُسجن سجناً مؤبّداً. أمن الممكن أن يحكموا عليَّ بالإعدام؟ لم أعد أذكر إذا كانوا يقتلون الناس هَهُنا. لا أعتقد أن هناك إعدامات منذ أن ولدت، ولكن ما يدريني؟ هل ألغي حكم الإعدام؟ هل ألغي حكم الإعدام في جزيرة "موريس"؟

ابتسمت لي ابتسامة مضللة ومطمئنة. غمغمت بكلامٍ ما حول حكمٍ بستٍ وأربعين سنة، غير أنهم قد يكونون متسامحين، خاصة إذا كنت حدثاً. قالت هذه الكلمة باللغة الإنجليزية كما لو كانت تريد أن تخفي ارتجاف صوتها. ثم نظرت في عينيَّ لتعرف إذا كنت قد فهمت. نعم. لقد فهمت يا آنستي العزيزة. أنا الآن لم أعد "شاباً" بل "حدثاً"، كما يقال عن جرائم الأحداث.

وما إن بدأت تشرح الأشياء لي، حتى أدركت بأنها تعرف عما تتحدث. إنها جدية ومجتهدة وعالية التركيز. فجأةً رحت أصغي إليها باهتمام. قطّبتْ جبينها عندما قلت لها أن شهودي الوحيدين هم العصافير والجرذان، ولكن عندما قلت لها أنني كنت أنقش اسم "كارلو" على مؤخرتي في ذلك المساء، لم تندهش بل قالت: هذا قد يساعدنا... إذا كان بإمكاننا أن نثبت الخلل العقلي مثلاً. قلت لها: لست مجنوناً. طمأنتني وقالت: لا، لا أعتقد أنك مجنون، ولكنك مشوش نفسياً فحسب. هناك سبب إذن.

هناك سبب لماذا؟

لم تجب في الحال. انقبض وجهها الصغير وأخذ لوناً رمادياً مثل لون جدران السجن. كان هذا الصمت شبيهاً بسرٍّ تبوح به إلي. لم أفهمه لكنه كان يقلقني. كدت أن أنتفض على الرغم من وضعي المؤقت.

قالت لي: أعرف من أين أنت، وأنا من هناك أيضاً.

كانت الصدمة كبيرة. لم أكن لأتصورها فتاةً من "ترومارون" أو من أي منطقة مشابهة لها. حاولت أن أفتش في جلدها عن العلامة التي تدل على ضياعنا، وعما يثبت أن آمالها قد بدأت تتعفن مثل آمالنا، لكنني لم ألمح أي شيء من هذا. بل رأيت فتاةً جيدةً تمارس عملاً مفيداً في حياتها. ثم حصل كل شيء. هذا لا يعني أنني وثقت بها لهذا السبب. فمن الممكن أن تكون قد اختلقت كل ذلك لتجعلني أتكلم بسهولة. ثم إذا أرادت أن تثبت الجنون، فلن تنجح في ذلك. لأنني لست ممثلاً. ولا أستطيع أن أتظاهر بالجنون.

ما إن رحلتْ حتى انطفأ الضوء، وانقطع الهواء الذي جعلتني أتنفسه قليلاً. أعلم أنها لا تستطيع أن تفعل أي شيء. كانت الصحف قد بدأت بمحاكمتي. راح الحارس يقرأ لي مقاطع من المقالات بسعادة كبيرة تنبعث من أسنانه المستعارة. سمعتُ وصفي "بمجرم خطير لم يتب من جريمته الأولى". وكثرتْ المصادر الموثوقة التي تشهد في هذا الاتجاه. كان أحد العناوين: "أيوجد أكثر من خطوة تفصل ما بين السرقة والقتل"؟ أجروا مقابلة مع أمي. بدأت بقولها: لا أعرف ماذا أقول لكم؟ أليست هذه بداية سيئة لأمٍ تتكلم عن ابنها؟ تصورت بلا عناء بقية كلامها. كان صعب المراس منذ طفولته. أقول لكم أنني حاولت ما بوسعي. بذلنا، أنا وأبوه، كل ما بوسعنا كي نضعه على الطريق القويم. لكنه تأثر بشلة الأوغاد تلك. ما إن أصبح بين يديهم حتى لم نعد نستطيع فعل أي شيء. لم نعد نعرفه. وهكذا دواليك. لم تدرك أمي مقدار الألم الذي تسببه لي. كانت تعتقد أنهم سيرأفون بي وسيتم تخفيف حكمي.

ولكن يا أمي، كان بإمكانك أن تقولي لهم على الأقل أنك لا تعتقدين أنني المجرم، على الأقل كان بإمكانك أن تقولي ذلك.

لا صوت يتحدث لصالحي. وهناك أصوات أسمعها منذ أن وُجدتُ هنا. لا تنقطع الأصوات في رأسي. لكنني لست مجنوناً، ولستُ القديسةَ "برناديت" أيضاً. عندما تكون الجدران حولك، وجدران خلف الجدران، تأتي أصواتٌ فتحدثك كي تمنعك من السقوط.

آمل فقط ألا يدوم ذلك طويلاً. لا أعرف كم من الوقت أستطيع أن أتماسك.

لو أن أحداً ما يسمعني لوددت أن أُمنح فرصة أخرى. فأكفّ عما أنا عليه وأصبح قسّاً.

صاد:

انتشروا، بعضهم خلف بعض، تسلسلوا على وقع موسيقا ضعيفة ممغنطة دون أي حزن. يئزّون مثل الحشرات المطاردة. مثل الدبابير الشرهة والنحلات المنزعجة. مثل هجوم حشرات سمعتُ نداء أزهار فريدة. كان الموكب يفوح من بعيد بهذا الصيف الذي تتجمّع حرارته في هذا الجسد الواحد. الرجال - الحشرات، الدبابير - الآلات، كانت تشكل حلقات واسعة وتقوم برقصتها المقصودة تحت ضوء القمر الرطب.

ركبوا على دراجاتهم الهوائية والنارية وراحوا يبحثون عن "حواء".

درت حول نفسي في غرفتي متسلحاً بقلمي الأسود. شعرت بنفسي تافهاً ومعدماً تماماً. اجتهدت على أن أصف حالتي النفسية بينما كنت أفكر، مما جعلني أبعد عن أفكاري. وكما لو كان هذا الذي يكتب إنساناً غيري، اجتهدتُ على أن أستخدم الصور والمقارنات ونماذج الأساليب التي لم تكن سوى قناعٍ للواقع.

لماذا لا أكتب: الشلة امتطت الدراجات وغادرت المدينة؟

لماذا لا أكتب أنني أخاف من أن يعثروا على "حواء"؟

لماذا لا أكتب أني خائف؟

رحت أكتب كي لا أصبح مجنوناً. أعتقد أنني قلت هذا سابقاً. رغبت في البكاء. في أن أتكلم وأتكلم عن هذا وذاك، عن رغبتي في الوجود بأي ثمن، أنا ابن "ترومارون"، عن نداءات استغاثتي التي لم أوجهها لأحد، عن كل ما يثقل كاهلنا، عن كل ما يتهمنا، عن كل ما يفخخنا، وعن كل ما يخنقنا. لذلك سأقتلهم بنفسي، سأذهب إلى الصيد وأشطب كل أولئك الذين ينوون الشر "لحواء"، وسأجعل من نفسي خبر الساعة الذي يتكلمون عنه في الصحف والتلفاز، ثُم إذا سجنت سأكتب قصتي وأكتب قصائد وأرسلها لناشرٍ فأصبح مشهوراً. إن المسافة التي تفصلني عن الكتابة ستثير إعجاب الجميع، وسيقول الجميع أليس ساحراً، أليس عجيباً، هذا الولد العاثر الذي اقتدى برامبو. أليس في ذلك حدثٌ إعلاميٌ وأدبي، سأصبح حدثاً إعلامياً هاماً، وعلاوة على ذلك سيعملون مني نموذجاً اجتماعياً يقدمونه لأولاد المدينة الآخرين الذين لن يهتموا تماماً، لكنني سأصبح مقروءاً ومسموعاً، هذا كل ما يهم، وقلّما يهمني كيف سيتناولون الأمر وبأي هدف يستغلونني إذا أرادوا ذلك، إن ما يهمني هو أن أخرج رأسي من الماء، أن أنجو من القدر، وأن أكون موجوداً.

بيد أنه يتوجب عليَّ القيام بالقتل من أجل ذلك.

ولكن قبل ذلك يجب عليَّ أن أجدها.

يجب أن أستجمع شجاعتي وأخرج. الهواء لا يزال محزَّزاً بعبورهم. إذا رأوني سيجبرونني على أن أقول لهم أين هي.

كان فتح باب غرفتي صعباً عليَّ. هناك زاوية قابلة للتنفس هنا. هَهُنا عريني وفجري. ولكن ليس هنالك من أي استمرارٍ ممكنٍ خارج الغرفة. إذ يمكن توقيف كل شيء. وكل شيء متوقع. العالم دائرة مغلقة بحيث لا نستطيع أن نخرج من الدوائر التي رسمناها بأيدينا. هذه الدوائر التي تقول لباقي العالم، لسنا مثلكم، عالمنا لا يشبه عالمكم، اليوم تسجننا هذه الدوائر أكثر من سجون الدولة بالتأكيد.

يجب أن يجد الإنسان لنفسه باباً يخرج منه دوماً. يجب أن يتوهم ذلك حتى لو كان يخدع نفسه.

كل شيء جامد في المدينة.

انتشرت الشلة في "بور لوي" كي تبحث عنها. تسلحوا بزجاجات المولوتوف. كانوا يرغبون بإيجادها أولاً. وبعد ذلك لم يعودوا يسمعون سوى الصخب في رؤوسهم والمرارة في حلوقهم. ستكون الضربة الأولى الأكثر قوة في صمت المدينة. الضربات الأخرى ستكون أكثر سهولة. سيستولي الرعب على الناس عبر ضجيجهم وصراخهم. سيحاول البعض أن يهربوا. ويحاول آخرون أن يتمترسوا. ستنتشر الموجة بسهولة. لقد هوجمنا، وها نحن أولاء نهاجمهم. ستلعب الشرارة لعبة "قفزنا العنز"، ثم سيحصل الانفجار.

إنهم لا يعلمون. تسيطر عليهم الرغبة في المستحيل. إنهم لا يفهمون درجة هشاشة عالمهم. وأن هذه الحركة من الغضب الأحمق والمراهق، ورمي حجر على واجهة محل تجاري، ستحدث موجة صادمة يصعب إيقافها. صحيح أنهم أطفالٌ يعضُّون، بيد أن هنالك ذئاباً تنتظر أن تواجههم وأن تمزِّقهم.

لقد اختاروا أن يتجاهلوا أن كل شيء هنا يردّهم إلى هويتهم. وأن الناس، عندما ينظر بعضهم إلى بعض، لا يرون وجوهاً، بل يرون البطاقات التي ألصقت على الوجوه إلى الأبد.

لقد نشأت هذه الجزيرة عن بركان. لكنني لن أكون واحداً ممن سيوقظون البركان. بل يكفيني مجرد هيجان. شرعت أركض كي أجدها قبلهم. ثم إنني أعلم أين هي.

حواء:

أعرج.

أترنح.

كلُّ نسمةٍ بابٌ مفتوحٌ إلزامي.

كل نسمة تستمر دهراً.

كل نسمة توقظ المناطق المؤلمة في جسدي

غير أنني في هذه الحالة أشعر أنني ما زلت على قيد الحياة على الأقل.

سيأخذ ذلك وقته اللازم.

إن وقتي مختلف عن وقت الآخرين.

الحرية والنهاية: هو ذا دليلي.

تراكمت كل هذه الأنفاس المتقطعة واستقرت في حنجرتي. بدأت تضغط عليها.

أعتقد أنني أفهم معاناة "سافيتا". وقد آلمني التفكير فيها الآن حيث أعلم أنني كنت سببها.

نفاق هذا الرجل يضحكني أو يخيفني، لا أدري. ارتجافه، قفزاته الصغيرة، ارتعاده. يا له من مخلوق زاحف دون عمود فقري. كان يرغب في لدرجة أنه تجاوز خجله. وكانت شجاعته كافية لأن يصل إلى قاعة "علم الأحياء"، ولأن يجعل من ظله غولاً

عارياً يرتسم على الجدار، ولكن، أن يراه أحد ما، فلا. عين أخرى على خيبته: لا. يستطيع أن يمددني على الطاولة بحيث ألتصق بخشبها، يستطيع أن يأخذني في جميع الاتجاهات، يستطيع أن يتظاهر بأنه يعشقني، عندما نكون وحيدين في سجنه الوهمي. أما إذا رآنا أحد فسينكر كل شيء. أستطيع أن أتصوره يقول هي من أغرتني. هي التي توسَّلت إليَّ أن أفعل ذلك. هي التي ارتمت عليَّ. مما لا شك فيه أنني سأنتهي بأن أبدو كأنني اغتصبته.

فكرت في السلاح الذي أعطاني المفتش إياه. لقد أعطاني إمكانية قلب كل شيء. وإمكانية أن أستأنف به حياتي من جديد بعد أن أكون قد نظَّفتُ الطاولة تماماً. لقد سمعت الكثير. هناك عالم خارج المحرمات. ذلك ما قاله جسد "سافيتا" لي: اقطعي روابطك وارحلي. وذلك ما قاله المفتش لي: هذا ليس للانتحار بل كي تشقي لنفسك طريقاً. إنه يعلم أيَّ طرقٍ سلكتُ، وأين يمكن أن يقودني أول احتكاكٍ مع أي رجل آخر.

سأترك علامتي وسط حاجبيه تماماً. ثم سأرحل. سأهرب عبر العنف. لا سبيل آخر لدي. في حقيبتي وتحت ذراعي، يغرق السلاح بهدوء. إنه نقودي التي سأشتري بها قدري. لست بحاجة لأخذ كل شيء. كنت حمقاء مثلما يكون المرء في سن السابعة عشرة. بيد أنني أعلم الآن. ثمة مكان يكون فيه صراخ العصافير حاداً وقصيراً، وللصيف فيه حروق تنسيكَ أن تتذكر حتى ديدان أمعائك.

قال لي السلاح في الحقيبة: كل أنواع الموت بين يديك.

وقالت لي "سافيتا": وكل أنواع الحياة أيضاً.

ماذا تختارين؟

غصتُ في ذكرياتي طويلاً قبل أن أواجه نظرته تلك. هذه النظرة التي شاخت قبل أوانها، هذه النظرة القاتلة خجلاً وعجزاً. النظرة التي تفتقر للعزاء أكثر مما أفتقر أنا إليه.

كليليو:

انسابت رقةٌ في عينيها تحت ظلال أهدابها. أهذه النظرة لي؟

اسمها "لورين".

اسمها "لورين".

أعتقد أنني لن أحكم بالإعدام.

أستطيع أن أخرِّبَ قطع "البلوك" التي دفنتني هَهُنا. أستطيع أن أفكّها قطعةً قطعةً من ملاطها، حتى لو فقدت أظافري وشبابي. لطول ما نظرت إلى الجدران، أصبحتُ مجرد بقعة داكنة، ثم مجرد ثقب، ثم لا شيء. أصبحت فتحة تطلُّ على العدم وتفضي بي إلى الوقوع في العدم.

هل أضحك أم أبكي؟ الخيار محدود.

لكنَّ المهم هو القناعة: فأنا لم أقتل. يمكن أن ينهار العالم. لكنني لم أقتل.

في منتصف الليل أخرج من هذا الوحل الذي يتحول إلى وسنٍ فأرى "كارلو" ينظر إليَّ من خلال القضبان. نهضت واقفاً. "كارلو"! ها أنت ذا قد عدت! هز رأسه لكنه لم يقل أي شيء كي لا يزعجني بلهجته الفرنسية المستعارة. وقفت مقابله ومررت يدي عبر القضبان. أخذ بيدي، لكن يديه كانتا باردتين لدرجة أنني شعرت بالقشعريرة.

سألته: أتشعر بالبرد يا "كارلو"؟ هز رأسه مرةً أخرى. قلت له: هكذا هو هواء السجن، يشعرك بالبرد قبل أن تموت. لا تبقَ هنا. سألتحق بك في الخارج. نزعتُ صدرتي وأعطيتها له. عندما لبسها لاحظت أنه عارٍ ونحيفٌ جداً. ما بك يا "كارلو"؟ ثم رأيته، هو أيضاً، حبيس زنزانة في السجن. فلم أفهم شيئاً.

ثم وجدت نفسي في الخارج، في مكان يشبه باحة التنفس. كنت على شاطئ صخري. كانت الأمواج تضرب حواف الجرف الصخري، فتفتته وتأكله. يبدو أن الهواء كان يصفر كصوت البوق في الأنفاق التي حفرها الماء في الصخر. كان يهب، يئن، فيُسمع في القرى المجاورة مثل صوت الأموات. إلى أن فتح الموج معابر عريضة فأخمدَ أصواتَ الهواء والأموات. حينذاك أصبحت أنا من يصرخ ويصفر ويئن ويوقظ هذا المكان النائم من صمته.

لم يعد يُسمع سوى صوتي في السجن.

ثم أخذني وحل النوم.

يقال إن المحيطات تنام في الليل. لكنها ربما تكون ميتة.

صاد:

أنا صادق مثل اسمي. أدخل في لُجَّة هذا الاسم. لا أحد غيري يستطيع أن يتبع الغيمة التي تحمل اسمه.

إنها تمطر. أشعر بالبرد من هذا المطر. أريد أن ألتحق بها ، أتبع طريقها ، وأتبع انتحارها ، هنالك عقد بين كيانين منهوكين ، بين بهيمتين تعبتا قبل أن تبدأا الحياة.

غير أنني لا أريد أن أتوقف هنا أيضاً. لدي حياة أعيشها. لا أخاف من أن أتعثر. أخاف من رؤية السقوط مقابلي. إن ما ينتظر الشبان والشابات، ممن هم مثلي أو مثلها ، هو سقوط الخنجر على ليلهم وضحكاتهم. ألم نصل إلى هذه اللحظة يا ترى؟

كل ذلك قصير جداً. بضع سنوات ماجنة. لا نكاد نفتح عيوننا على الحياة بنظرة جديدة ، حتى نكتشف الموت ماثلاً أمامنا. خيارنا هو: الهزيمة أو النصر بالقوة. لكنَّ هذا النصر ليس نصراً. بل هو مقاومة اليائسين. هذا ما وددت أن أقوله لهم ، هؤلاء الذين ينتشرون في المدينة في هذه اللحظة بوجوههم الشبيهة بوجوه الملائكة الشريرين مأخوذين بإيقاعهم المضلل وأصواتهم الصاخبة التي تعلن حلول أجلهم. لا أدري ما الذي يربطنا بهذه الإيقاعات القاتلة.

أتربطنا بها شمس ولادتنا الرمادية؟

إنها تمطر. تمطر في رأسي. تمطر في كل مكان تقريباً في أسراري. كأنني أبكي. لكنَّ ذلك ليس صحيحاً.

لا أريد أن أموت.

أريد أن أتكلم عن هذه الأماكن الموجودة خارج العصر، هذه الأماكن التي تذبحنا. أريد أن أفضح هذه الأماكن التي تصرُّ على إنكار وجودنا.

أجتاز مجموعة من أبواب الصفيح المغلقة. كلما مشيت أشعر بأنها سُدَّتْ في وجهي. لا أحد يسمح لي بالدخول. أصبحت خارج كل الفضاءات المتاحة والأراضي المسكونة. كانت حواء هي التي تجرني معها في طوافها الدائري، وفي زوبعة غضبها.

رأيت أجساداً نائمة عبر فتحات الأبواب. كانوا ينامون واضحي الملامح على أقراص الدرج المبتلة بالمطر. سكارى سقطوا بتأثير الكحول في بطونهم. امرأة عجوز، ربما تكون ميتة، تضع تحت رأسها حزمة من الأسمال تستخدمها كوسادة. كلبٌ ورجلٌ ينامان ويشخران معاً.

لجميع هؤلاء وجه ينم عن تمزقاتهم. الوجه نفسه. يبدو لي أنني أستطيع أن أدخل فيهم وأسكن في حزنهم. أستطيع أن أكون كل تجعيدة من تجاعيد وجه العجوز. أستطيع أن أكون خاصرة الكلب المريض التي تدخل عميقاً في أضلاعه وتخرج كي تحافظ على تدفق الحياة في جسده. أستطيع أن أكون يد الرجل المتحركة التي تتغلق وتنفتح، ثم تنغلق وتنفتح، كي لا تتجمد تماماً. أستطيع أن أكون طرف قميصه المنسول الملطّخ ببقعة البول بجواره. أستطيع أن أكون

صوت الريح التي تهب بهدوء، والجزيرة النائمة دون أن تسعى لفهم أي شيء.

إذا كنت أستطيع أن أكون كل أولئك، فأنا أستطيع أيضاً أن أكون "حواء". إنني أعرف أين هي وماذا تفعل. وقد عرفت ذلك على الدوام.

وأنا أيضاً ذلك الرجل الشاحب والتافه الذي سبب الانفجار بدافع من الجبن والشهوة.

وأنا الأباء والأمهات الذين خنقهم الإخفاق.

وأنا الشبان المتعطشون الحانقون الذين يعتقدون أنهم يحصلون على حريتهم بزرع الفوضى.

وأنا سارق النار[1] مثل ذاك الذي يحدثني في الأحلام دائماً.

لكنني أنا الآن أنا: أصبحت بسيطاً ومضاعفاً مرتين أو أكثر. أنا صادق. ولا أهمية لأي شيء آخر.

١- المقصود هو "رامبو" علماً بأن سارق النار، حسب الأساطير الإغريقية، هو الإله "بروميثيوس" الذي أعطى سرها للإنسان مما مكّنه من خلق الفنون والآداب والحضارة - المترجم.

نظرتِ إليه فصُعِقْتِ من التغير الذي حصل له. كان الندم قد أضناه. كان يسعى لأن يحبو نحو الزوايا مثل دودة. أدركتِ أنه كان ينتظركِ من خلال الباب المفتوح وحركته المستسلمة عندما دخلتِ، إذ رفع يده وخفضها. كانت أمامه زجاجة من "الروم" نصف فارغة، وكان البخار المنبعث منها يملأ الغرفة ويموّه الروائح المستقرة فيها. كانت هناك أوراق حوله، بعضها سليم وبعضها ممزق. وهناك صور لشخص يشبهه نوعاً ما، بيد أنه يصعب التعرف عليه. أما هو فقد امتصه النور تماماً.

شعرتِ عندما قتلتِه بلحظة شفقة قصيرة. ثم تشجعتِ: هو، لم يكن لديه أدنى شفقة. لقد منحك كل مزايا قتله كونه جباناً وخسيساً وأنانياً.

تظاهر بالوقوف لكنه لم يقوَ على ذلك. أدركتِ أنه خائف من خلال تنفسه المرهق. قال لك:

لا تؤلميني.

لهذه العبارة صدىً باردٌ في رأسك. في كل مرة كُنتِ مع رجل فيها، كنتِ تنطقين في سرِّكِ بهذه العبارة جسداً وروحاً: لا تؤلمني. لم تنطقي بها أبداً بصوت عالٍ. لكنك لم تكوني لتعرفي مدى الأضرار بشكل مسبق. وكنتِ تشعرين بالألم فلا يترددون ولا ينثنون، أحياناً يبتسمون وأحياناً لا يبدو عليهم أنهم ينتبهون. وكان يبدو لكِ ذلك جزءاً من لعبة 'هاتِ وخذ'.

إن الرجل هو من ينطق بهذه العبارة اليوم، لمجرد أن السلاح في يدكِ. لقد رضيتِ بانقلاب الأدوار. وها أنتِ ذي تستقبلين الاحتقار الذي ملأ بطنكِ.

قلتِ له: اركع.

هذه الجملة أيضاً، كانوا يقولونها لكِ كلَّ مرة. اركعي. افتحي فمك. تلقَّفي.

أصبح شاحباً كأنه سيغمى عليه. كرَّرتِ:

اركع.

نفَّذ الأمر. اقتربتِ منه. رفعتِ ذقنه ونظرتِ في وجهه كي لا تنسي ذلك الوجه وتلك اللحظة. ثم وضعتِ فم السلاح على جبينه بين الحاجبين.

السلاح ثقيل، لكنه ليس ضخماً، بل يتوافق مع يدك. تساءلتِ إذا كنتِ قد رفعتِ زلاجة الأمان، وإذا كنتِ تعرفين كيف تطلقين النار. لم يعد الجسد الشاحب الذي تنحنين عليه يتمتع بأيّ ملامح بشرية. بل بدا أكثر موتاً من جسد 'سافيتا' في مكان عرض الجثث.

عاودتِ التفكير فيها مثلما رأيتها آخر مرة. كان لهذا الجسد لونٌ ضاربٌ إلى البنفسجي بسببه، كان جامداً وساكناً بلا حراك بسببه أيضاً. وهي بدت بسببه أيضاً نقيض ما كانت عليه: فتاة ضاحكة، متأملة، حارة وحيَّة، حيَّة بصورة خاصة. فجاءت لحظتها الأخيرة لترى قبل موتها هذا الوجه المتغضن المهزوم الذي يجهل حتى معنى كلمة الحب.

سوف لن تغفري له.

حواء:

خرجتُ من بيته وقد تملكتني الدهشة من عدم سماع أحد لصوت الرصاص. حتى أنني لم أتوقع هذا الصوت. فقد تكوّن لدي انطباع بأنني أُصبت بالصمم. لكنَّ يدي لم تهتز.

كان يشبه الآخرين جميعاً بعينيه المغمضتين.

خرجتُ تحت المطر الذي بدأ يتساقط. كان مطراً بطيئاً وفاتراً. وقد بلّلَ جمجمتي شبه العارية وجعل ثيابي تلتصق بجلدي. كان المطر مدراراً بحيث تشكلت غدراناً تحت قدمي، ثم كبرتْ فأغرقتهما.

اعتقدتُ أنني قد ابتعدتُ عن المنزل لكنني انتبهتُ إلى أنني لم أتحرك من مكاني تقريباً. بقيتُ واقفة هناك لا أدري ماذا أفعل.

ما نهاية القصة؟ هذا شأنك يا "صاد". أن ترويها. أنا لا أعرف فن القصص. هل هذه نهايتي الآن في سن السابعة عشرة؟ وهل الحياة قصيرة لهذه الدرجة؟

صاد:

انتهى الأمر: ناديت الشرطة لأبلغهم بخطر حصول الشغب. آمل أن يأتوا في الوقت المناسب.

وصلت راكضاً إلى منزل المدرس. كانت "حواء" واقفة أمامه. تدير له ظهرها. كانت مبللةً بالمطر تماماً. حتى شعرها. عرفتها في الحال. ذلك أن "حواء" هي "حواء". كانت تحمل سلاحاً في يدها.

كانت واقفة في النور الخفيف. وجهها يبدو مفككاً. وملامحها تزدان بعدة ألوان، ألوان الكدمات. كانت عيناها عميقتين وباردتين كالمعدن بحيث صَعُبَ عليَّ أن أنظر إليها. كانت عيناها تذهبان فيما وراء هذا البيت، فيما وراء "بور لوي"، وفيما وراء الحاضر. عيناها للمستقبل، والمستقبل غير موجود.

جلب المطر رائحة المحيط. وكان ينهمر حولها بصوته العذب. كأنَّ المطر سيذيبها ويصهرها، فلا يبقى أيُّ شيءٍ منها.

وقفتُ أمامها وأخذتُ السلاح من يدها. لم تمنعني، بل قالت لي:

لقد ترك رسالة بشأن "سافيتا".

قلت لها إن هذا جيد وسوف يكونون ملزمين بإطلاق سراح "كليليو". ثم هذا سيعطيني العذر.

العذر؟

عندما أذهب إلى الشرطة.

هزت رأسها وقالت بأناة: لا ، أنا من قتلته ، ولست أنت.

قلت لها : "حواء" اتركيني أتصرف. أعرف ماذا يجب أن أفعل.

نظرت إلي ببقية غضبها السابق:

يجب عليَّ أن أذهب إلى النهاية ، والأمر لا يعنيك بشيء.

قدتها نحو جدارٍ يحمينا من المطر قليلاً. أجبرتها على أن تجلس إلى جانبي. كانت متعَبةً وفي حالة سيئة بحيث أذعنت لي ، حتى لو كانت هذه الحركة قد أيقظت كل آلامها وجعلتها تقطب جبينها.

لا أريد أن تضع نفسك في دائرة الاتهام بدلاً مني. أمنعك من القيام بذلك.

أنا لا أحتاج إليك.

أنا لا أحتاج إليك.

أربع كلمات: واحدة ليدي، واحدة لقدمي، واحدة لرأسي وواحدة لقلبي. أصبحتُ متورِّدَ الوجه.

لأول مرة ضمتني بين ذراعيها. كان فمها موحشاً لكنه مرن. ورغم اضطرابي ، رحت أقيس السنتيمتر الذي يفصل ما بيننا.

قالت: وإلا ، فلا فائدة من هذا.

لا أدري ما الفائدة من ذلك. شعرتُ بصعوبة تنفسها وخفقان قلبها غير المنتظم.

نظرتُ إلى الأضرار على جسدها. كانت منحوتةً مثل صخرة بازلتية. أنا لا أفهم شيئاً من العنف ، وهو هنا ، وفي كل مكان ، ينتشر كالسمِّ في الهواء.

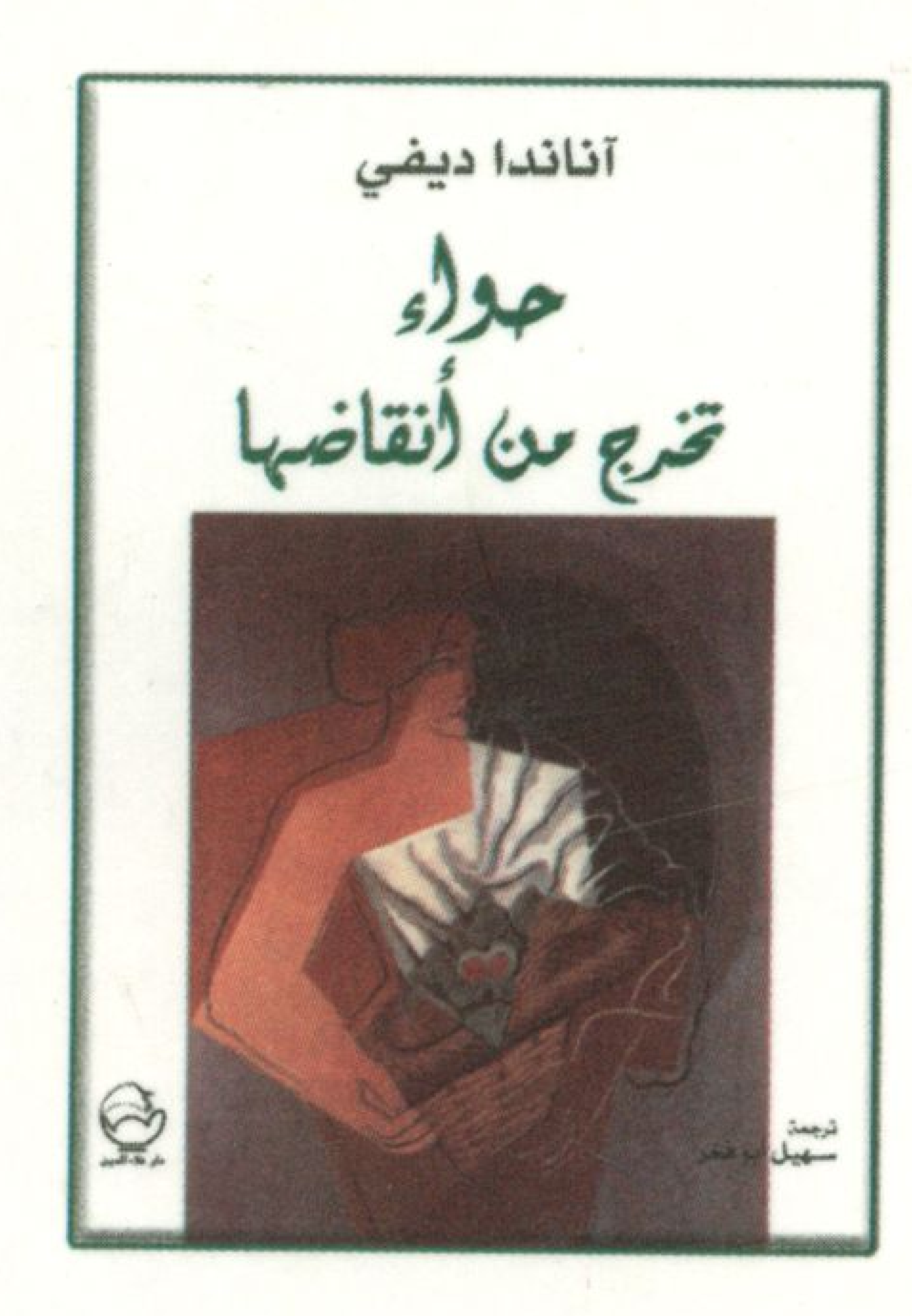
بيد أن هناك حقيقة أكيدة: فمن أجلها، ومعها، لسبب أو لعدة أسباب، أنا على استعداد لأن أذهب إلى الجحيم. ولا أكترث للباقي. مررت بيدي على عنقها وعلى رأسها المحلوق. لقد غرقنا في الماء حتى ونحن نحتمي تحت الجدار.

غير أن طعم الماء كان لذيذاً على شفتيّ.

من منشورات دار علاء الـ

- ذكريات غيشا
  ......آرثر غولدن
- زنوبيا ملكة تدمر - رقص الآلهة
  ......أ. بد دانييال
- الحب المتبادل بين الزوجين
  ......البرتو مورافيا
- خبز فوق الماء
  ......اروين شو
- قرب النهر أبكي
  ......باولو كويلهو
- محارب النور
  ......باولو كويلهو
- بؤس الشيطان
  ......بريم ستوكر
- جاز
  ......توني موريسون
- مشاهد من حياة كهنوتية
  ......جورج اليوت
- إيفا
  ......جيمس هادلي شيز
- النطع
  ......جينكيز إيتماتوف
- مرآة الحبر مختارات
  ......خورخي لويس بورخيس
- الحجلة لعبة القفز بين المربعات
  ......خوليو كورتاسار
- نذير بالشر
  ......دافيد سلتزر
- مذكرات امرأة
  ......روش بدرخان
- انماط غريبة من الحب
  ......سومرست موم
- قليل من حرارة الشمس في الماء البارد
  ......فرانسواز ساغان
- نوافذ على العالم
  ......فريديريك بيغبيدير
- الأرواح الرمادية
  ......فيليب كلوديل
- حفيدة السيد لنه
  ......فيليب كلوديل
- لعبة حب مجنون
  ......كريستين أوربان
- عائلة كاردينال
  ......لدوفيك هاليفي
- جيل وجان
  ......ميشيل تورنيي
- فالس الوداع
  ......ميلان كونديرا
- ابنة الكاتب
  ......هنري ترويا
- الوشا
  ......هنري ترويا

EVE DE SES DECOMBRES



EVE DE SES DECOMBRES

تدور أحداث الرواية حول أربع شخصيات: "حواء"، التي باعت جسدها، أو بعبارة أدق، ظلال جسد "صاد"، لتدعم مادياً تعليمه وحبه؛ وهو لاجئ منذ الولادة، يقرأ لـ"كليليو" الذي يمتهن الأعمال القذرة، ويبلغُ مسامير الآخرين الصدئة، مع ما يكفي من الغضب لملء سلة حياته المثقوبة عشرات المرات. وأخيراً، "سافيتا"، الفتاة الطيبة في نظر أهلها، والتي ترفض أن تكون كما هي، فيما يربطها بحواء.

أربعة مصائر التقت وتداخلت في المغترب الذي تغيب فيه الأمهات في ضباب الاستسلام، ويجد فيه الآباء مزايا السلطة في الكحول.

هؤلاء الأربعة ممنوعون من قيادة الدراما التي تكمن فيها حبكة الرواية: فقد وجدت "سافيتا" ميتة وملقاة في المزبلة. أي جريمة تلك؟ جريمة ألم؟ جريمة حزن؟ اغتصاب حقير ناتج عن الحب؟ أم الدعارة؟

يرمى "كليليو" في السجن ككبش فداء، ويجد "صاد" و"حواء" نفسيهما في مواجهة القدر بدافع التحريض...

تجذرت هذه الرواية في جزيرة في المحيط الهندي، ولم تعرف تأثير صدى تعدد لهجات العالم المحيط الذي يسوده الإعدام والنفي وألم المراهقين الذي لم يكن له حدود. ولم تمنح الروائية شخصياتها قوة الإنسانية التي تتجاوز الحدود الجغرافية.

ISBN 978-9933-18-053-9



يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy